العدد الثاني والعشرون / السنة السادسة / (يناير - فبراير) ٢٠١١
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الدوّامات والطفل..!

يا طفلي العزيز، يا عنوان البراءة،
أبدًا لن تُرَاع،
فدوامات الليل لن تطالك،
وبزئيرها الفوّار لن تنالك..!
ففي قلبها نور فجر يلوح،
يبدد ظلمتها...
فأيام الله آتية آتية...
فالأفلاك لها منتظرة، ولنورها تواقة،
ولضوء النهار شَوَّاقة...!
***

- **الله، الكون، الإنسان.. والنبوة** / فتح الله كولن
- **خَلْق واحد وتعددية في المخلوقات** / أ.د. محمد عمارة
- **رفَع السماء بغير عمد** / أ.د. زغلول النجار
- **حوار الذات مدخل أساس لحوار الآخر** / د. مريم آيت أحمد
- **نقد الذات** / د. سلمان العودة
- **النبوة والإنسان** / أ.د. أحمد عبادي

بسم الله الرحمن الرحيم

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الافتتاحية

الفكر الاستيعابي

يبقى الفكر الاستيعابي لعناصر الوجود في وحدة معرفية واحدة، هي الأساس الذي يبني عليه الأستاذ "فتح الله كولن" منطلقاته الفكرية والدعوية. فنحن والعالم والكون موجودون بوجود الله تعالى، وكانت النبوات قد شكلت التاريخ الروحي لبني الإنسان عبر القرون توكيدًا لهذه الحقيقة. فالشعوب والأمم إنما هي وحدات روحية يكمل بعضها بعضًا ويرفد بعضها بعضًا.

وكل سبر لأغوار الكيان الإنساني سيأخذنا في خاتمة المطاف، إلى مناطق الفطرات والبداهات من وراء جميع الإدراكات العقلية الظاهرية، مشيرة إلى حقيقة الوجود الإلهي المهيمن على كل وجود وموجود. ومن هنا يجيء توكيد الأستاذ، على ضرورة كشف الحجب عن ذاتية الأمة، لكي تتجلى لها هذه الحقيقة بأوضح صورها. فهذا المقال يبني منارات معرفية هادية لمن يرغب بمعرفة الطريق المستقيم.

ومن التوافقات الجميلة والغريبة أن يأتي مقال الأستاذ "محمد عمارة"، وكأنه رديف متمم في المعنى والمضمون لمقال الأستاذ "فتح الله"؛ حيث يعالج قضية وحدة الخلق وإن تعددت صور المخلوقات، وأحدية الخالق المتظاهرة في وحدة الخلق والمخلوقات.. فخطه الفكري يجري موازيًا في هذا المقال، للخط الذي اختطه الأستاذ "فتح الله كولن"، وهو يؤكد -كذلك- المعنى المعرفي الروحاني الذي ينطلق منه الأستاذان الفاضلان.

ولكن هذا الاستيعاب في حاجة دائمة إلى دعاة، على مستويات عالية من اللطف واللين والذوق، تمكنهم من الدخول إلى قلوب المتلقين وأرواحهم دون استئذان. وفي تاريخنا نماذج عالية من هؤلاء الدعاة، فمقال الأستاذ "فؤاد البنا" الموسوم بـ"الفتوحات الناعمة" يتحدث عن هؤلاء الدعاة الذين لم يتمنطقوا بسيف ولم يطعنوا برمح.

ولئن كان الحوار مع الآخر هو مفتاح الدعاة لفتح القلوب والأرواح، غير أن "الحوار مع الذات" ينبغي أن يتقدم بشكل منطقي على الحوار مع الآخر، لذا يلزم الداعية أن يلتفت إلى ذاته ليحاورها قبل أن يشرع بحوار ذوات الآخرين، وعن أهمية هذا الحوار تحدثنا الدكتورة "مريم آيت أحمد" في مقالها "حوار الذات مدخل أساس لحوار الآخر".

وهذا كله إن لم يؤطَّر بإطار من التوازن والاعتدال، وعدم الإفراط أو التفريط في الفكر والعمل، فإنه قد لا يأتي بالخير المؤمل منه. وهذا هو سبب ما نلمسه من خلل في توجهات الحضارة المعاصرة، وتعاملها مع الشعوب بموازين مختلفة تفقدها صفة العدل الذي هو الأساس في أية حضارة تريد الحفاظ على نفسها من السقوط والتدهور، وإلى هذه المعاني يشير مقال الأستاذ "إبراهيم شوقار".

ويسرنا أن نزف إلى قرائنا بشرى صدور "حراء" كل شهرين تباعًا من هذا العدد، بعد أن كانت فصلية الصدور، ومن الله التوفيق والسداد. ■

٢

١٧

٣٣

٥٨

المحتويات

حراء
www.hiramagazine.com
العدد: ٢٢ – السنة السادسة (يناير – فبراير) ٢٠١١
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين

٢	**الله، الكون، الإنسان.. والنبوة** / فتح الله گولن (المقال الرئيس)
٧	**خَلْق واحد وتعددية في المخلوقات** / أ.د. محمد عمارة (قضايا فكرية)
١١	**الفتوحات الناعمة وأثرها في فتح القلوب** / د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)
١٧	**حوار الذات مدخل أساس لحوار الآخر** / د. مريم آيت أحمد (فضايا فكرية)
٢٠	**العدالة ومظاهر الخلل في الحضارة المعاصرة** / د. إبراهيم شوقار (قضايا فكرية)
٢٥	**رفَع السماء بغير عمد** / أ.د. زغلول النجار (علوم)
٢٩	**لمسة الإيمان والتآخي في العمارة الإسلامية** / د. رشيد كهوس (ثقافة وفن)
٣٣	**الموت قبل الموت** / نور أفشان كبال (أدب)
٣٦	**درب الأنبياء** / فتح الله گولن (المنشور)
٣٧	**نشيد الفارس** / فتح الله گولن (شعر)
٣٨	**بين يدي قصة فريدة للمرحوم فريد الأنصاري** / أ.د. خالد الصمدي (قصة)
٣٩	**نهاية الجبروت** / أ.د. فريد الأنصاري (قصة)
٤٢	**النبوة والإنسان** / أ.د. أحمد عبادي (دراسات إسلامية)
٤٩	**البتّاني.. فلكي ورياضي فذ** / صلاح عبد الستار الشهاوي (تاريخ وحضارة)...
٥٣	**الصراط** / أ.د. عماد الدين خليل (أدب)
٥٤	**بلبلٌ ووردة** / أ.د. حسن الأمراني (شعر)
٥٦	**أزمة الإصلاح الإسلامي** / د. مجدي سعيد (قضايا فكرية)
٥٨	**نقد الذات** / د. سلمان العودة (قضايا فكرية)
٦٠	**هَدْي خير العباد** / صابر عبد الفتاح المشرفي (أنشطة ثقافية)

٧

٢٠

٣٧

٦٠

اللّه، الكون، الإنسان.. والنبوة

إن قراءة الوجود والأحداث قراءةً جيدة وتفسيرَها تفسيرًا صائبًا، وكذلك الحفاظ على الموازنة بين الإنسان والكون وحقيقةِ الألوهية، لهي من أهم جوانب الأعماق النبوية ومن أرقى مميزاتها.. فإن الإدراك العميق للوجود كـ"كلٍّ"، والفهمَ التام لتجلي الأشياء -التي بعضها نماذج للبعض الآخر- في صورتها العمومية، ولقوانين الوحدة التي هي ذاتُ صفةٍ كونية ومحيطةٌ بالموجودات... كلُّ ذلك إنما تَيسَّرَ للأنبياء وحدهم، وعلى رأسهم حضرة روح سيد الأنام -عليه أكمل التحايا- وهذا أبهر معجزاتهم قاطبة.

وإذ لا زالت البشرية تتهجى في أيامنا هذه حروفَ الحقائق المتعلقة بالإنسان والكائنات وما وراء الطبيعة مع توسعها العلمي وتقدمها التكنولوجي، فإن الأنبياء وقفوا مليا -وبجد- على هذه الحقائق منذ آلاف السنين، وقالوا بالتمام لأممهم ما ينبغي أن يقال في شأن الرجوع بالأشياء لصاحبها؛ فبعضهم أجمل وبعضهم فصَّل، وذلك بجَهازهم الخارق للعادة، ومكانتهم الخاصة عند الحق تعالى، والتبليغات المتوالية من "الماورائيات".

ولم يبلُغ الأنبياء هذه الحقائقَ بطرق البحث العلمية الشائعة في العصر الحالي ولا بالمناهج التجريبية؛ بل بَلَغوا هذا العلم والمعرفة بفضل سعة قلوبهم وعلاقتهم الخاصة بالله تعالى، إلى جانب كمال عقلهم وحسهم وشعورهم وإدراكهم، كمالاً يتعدى حدود التصور الإنساني؛ فرأوا أن الوجود كله في تصرفِ قدرةٍ قاهرةٍ، وأطلوا على وحدة العلم والإرادة المهيمنةِ في كل مكان وكل شيء، وقرؤوا وفسروا الشهود والمعالم والإشاراتِ المناديةَ بالواحد الأحد في سيماء كل الأشياء والأحداث. ثم أعلنوا أنهم دعاة التوحيد في المشاعر والفكر والاعتقاد.

ومن العسير أشد العسر، الادعاءُ بأن العلم قد أتى بشيء يُذْكَرُ حتى الآن في العلاقة بين حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية؛ تلك الحقيقة التي أخبر بها الأنبياء منذ مئات القرون. فالعلم لا يزال يحبو في كثير من المواضيع، ويصحح غدًا ما يعدّه صوابًا اليومَ، ويسعى إلى تقويم الغلط المجزوم به بالخطأ المحتمل، بل يراجع نفسه بنفسه باستمرار، ويصون مسلَّماتِه النسبيةَ بفرضيات مختلفة، ولا يستطيع أن يتجاوز حدود تحليل الجزئيات مهما حاول ذلك. فنستطيع أن نقول:

إن العلم لم يضع حتى اليوم حكما ثابتًا في هذه الموضوعات التي تطرّقنا إليها بحيث لم يضطر إلى تبديله لاحقا... فلم يوفَّق العلم في التعبير عن الحقيقة المطلقة البتة، وإن ما بلغه لا يزيد على أنه زادٌ وذخيرة للمسافرين وقرضٌ حَسَنٌ للباحثين.

وأنبّه هنا إلى أني لا أقصد بما قلته التهوينَ من شأن العلم وثمراته، أو الانتقاصَ من أهمية المباحث العلمية؛ بل نعتقد أن العلم وثمراته منظومةُ قيمٍ هامة جدًّا وتستحق التوقير والتقدير. فالمقصود هو التذكير إلى مصدر للعلم لا يُلتفت إليه اليوم، مع أنه أصح المصادر في التعبير عن حقيقة الإنسان والوجود والخلق، وأكملُها وأشملها، مع تنزهه عن الخطأ في ما يقوله ويرشد إليه... ألا وهو مصدر "النبوة" التي احتفظت بنداوتها أبدًا، باستثناء التحريف الحاصل في بعض الكتب السابقة... إن العلوم المعاصرة اليوم قد تكتشف -من منظور كلي وبتقويم شمولي- أمورًا مهمة تتعلق بالنظام والانسجام والحركة في الوجود والحوادث، ونحن نستقبل ذلك بالتقدير والتوقير؛ لكنَّ جمعًا من المجهَّزين بجَهاز خاص، قد أعلنوا في أقدم العصور وبواكير الزمان -ولو بشكل إجمالي- هذه المعلوماتِ والتفسيرات التي توصَّل إليها العصرُ باستخدامِ أعظم التكنولوجيات. فإذا كان هناك قسم من الجهات العلمية لم يلتفتوا إليها أو لم يوقروها التوقير اللائق، فإننا نرفع عند ذاك أصواتنا -في حدود أدبنا- فوق أصواتهم، ونجهر بأعلى صوتنا بما نراه حقًّا.

فكم من حقيقةٍ أظهرها العلم الحديث، قد بلَّغها الأنبياء منذ القدم في صور متنوعة وإنْ في فذْلكات مجملة، بنظر كلّي، واستنادًا إلى لدنّياتهم الرحيبة المنفتحة للوحي وإلى أعماق الفطانة المتميزة. فأينما وقعت البحوث المنجَزة بالمختبرات الحديثة والتكنولوجيات المتقدمة من الحقائق التي أعلنوها وحيثما وقفت منها، فإن ملايين البشر لا زالوا يقوّمون الأمور بموازينِ تبليغاتهم وتفسيراتهم، ويسيرون على خطاهم. وفي الطرف الآخر، فإن أحدث الفرضيات المطروحة باسم العلم والفلسفة، تتغير كل يوم بنظريات جديدة مختلفة. ويعني هذا أن رجال العلم الحاليين يناقشون زملاء أمْسهم ويضعون ما توصلوا إليه على المحك. وبدهي أن نظرياتٍ بدت ثابتةً ومتينة، تترك مواقعها إبان هذه المناقشة والمساءلة لتحل محلها آراء جديدة مختلفة، فتَرحل مُسلّماتٌ كانت تصان في حدقات العيون باسم العلم، متهاويةً واحدة بعد أخرى، لتحل محلها مسلماتٌ أخرى تحط واحدة بعد أخرى! أما الحقائق التي بلَّغها الأنبياء، فما فتئت تحتفظ بجدارتها -ما خلا تفسيراتٍ تعيسة لمنتسبين ضيّقي الإدراك- باعتبارها أسسًا ثابتة لا زالت تُرجَع إليها أبدًا، وذلك بأنها تستند إلى تبليغاتٍ ورسالات أتت من لدن ذات أجلِّ الأجلاّء وأعظمِ العظماء -سبحانه- الذي نظم الوجودَ كله كمَشهر وكَتَبه ككتاب وزيَّنه كقصر منيف.

لذلك، لابد في الإدلاء بالمعلومات في حق الإنسان والوجود والخالقِ، من ترك المجال لهؤلاء المجهَّزين بجهاز خاص (عليهم أفضل الصلاة والتسليمات)، والمرتبطين بروابط خاصة مع صاحب القدرة المطلقة، كما أنه ينبغي أن لا يقوم غيرهم بإبداء البيانات حول ماهيةِ ومعنَى ما وراء ستار الوجود وما أمامه.

إن العصور الآتية هي عصور القرآن، والسلطنة القابلة هي سلطنة "مفخرة الإنسانية" ﷺ. الآذانُ تستمع إلى رسالته، والمشاعل التي تبث النور في الدرب هي مشاعله. نعم، الأمر الفيصل الآن، هو لهذا الموحد الأكبر الذي يُرجع كلَّ شيء إلى التوحيد الخالص.

وبدهي أن من أهم وظائف هؤلاء تعيينَ وتثبيتَ المناسبات والتوافقِ والانسجام بين الكائنات والأحداث وبين حياة الإنسان وسلوكياته، وكذلك، إثبات الذات الأحدية ذي القوة، القيومِ على هذا التوافق المنسجم، وتعيينَ مسؤوليات الإنسان تجاهه. فإنهم هم الذين استطاعوا أن يجيبوا -على أصدق وجه وبأسلوب مقْنع- على الأسئلة حول الوجود وبخاصة الإنسان: من أين جاء، وإلى أين راح ويروح، ولِمَ جاء ولِمَ راح؟

ولذلك، لا مناص لنا من اللجوء إلى تبليغات رسل الحق تعالى وحدهم لا غيرهم، لبيان أصح المعلومات وأصوبِها في قضية الغاية والحكمةِ من وجودنا في الأرض، وقواعدِ المسير

التي ينبغي أن نلتزم بها في الطريق ومنتهى هـذا الطريق. فإذا اسـتطعنا ذلك فسـنفهم -تماما- القصدَ والغاية من حركة الكائنات في دائرتها الوسيعة الرحيبة، وسندرك جيدًا مـا وراء سـتار الوجـود وما ينطـوي عليه، والمجـيءَ والرواح المتعاقبَين في الأرض والمذهلَيـن للعقول، فنَصِلُ إلى الاطمئنان والراحة والسلامة في المشاعر والأفكار... اطمئنـانٍ وراحةٍ وسـلامة نابعة مـن العلم والتقويم لظاهر الوجود وباطنه، ولما أمامه ووراءه، ومِـن إدراكِ موقعنا ومكانتنا على الأرض باعتبارنا جزءًا مهمًّا من الكائنات، حتـى نتوافـق مع الانسـجام العام السـائد في الأشـياء والحوادث، ومِـن توجهِنا إلى الذات العلية الذي أَعد الأسـبابَ والوسـائل لسـعادتنا الدنيوية والأخروية، ومن اعتصامِنـا بـه، ومن إيماننا بتحقـق رغبات الأبديـة التي تحِنُّ إليها جوانحنا، وبالتالي توقينا الدائم من الانكسار والخذلان.

إن سـبل اكتسـاب العلـم ووسـائلَه الموهوبـةَ للإنسـان معينـة ومنحصرة. وجليٌّ أن العلوم المكتسـبة بهذه الوسـائل المحـدودةِ، محصورةٌ بطبعها وسـتبقى محصـورة. وأرى أننا سـنعجز بهذا القدر من العلوم والمعارف عن فهم الانسـجام العام وجوهر النظام الموزون السائد في الأرض، بَلْهَ العجز عن إدراك غايـة خلقنا وحكمةِ وجودنا في الدنيا وأصلِ النكتة في مناسباتنا مع الكائنات. والحالُ أن الإنسان يحمل على أكتافه مسؤوليةَ تنظيمِ حياته وفاقًا لسنن "نظام الكون" المهيمنةِ على الوجود كله، وطبقا لغاياتٍ عُلْويةٍ بموجب موقعه بين الخلق، كما هو مُلزَم بتنظيم حياته وفقًا لما يقتضيه موقعه ومكانته في الوجود. فما لم يُسـلِّمْ هذا الإنسـانُ زمامَ أمره إلى دليلٍ هادٍ، عارفٍ بيوم هذا السـفر المجهول وغدِه، وبمقدمته ومؤخرته، فإنه سـيقع لا محالة في أخطاء كثيرة وضنك شديد في مسيرة حياتـه في طريق الصعـود والهبوط والمنعطفـات والمتاهات ذاتِ مجاهيـلَ وأهـوال كثيـرة، بل قـد لا يبلغ -البتـة- الغايةَ المقصودة من خلقه.

إن رسل الحق الهداةَ، والمحظوظـين المقتدِيـن بهـم، هـم الذيـن قـرؤوا الوجـود والحوادث قـراءة صحيحـة دومًـا، وسـبروا أغـوار الجوهـر مخترقـين الشـكلَ والصورةَ، ونَفَـذوا إلى لب الأشياء وشاهَدوا المعنـى في المادة، فاطَّلعوا على بواطنِ كلِّ شيء مع ظواهرها.

فنحـن الذين نعجز عـن التنبؤ الجازم بمـا يلاقينا من الفجـاءات المحتملة إبان سـيرنا فـي طريـق الحيـاة، سـتخور قوانا وتنقطـع بنـا السـبل، ولا ننجـو مـن التيه والضـلال، وسـنغلط فـي قـراءة كتـاب الوجود، ولا نطَّلع على معرض الكائنات بنظـر يرجع بالبركة، ولن نفهم معنَى قَصْرِ الدنيا المنيف وفحواه وأسـرارَ بواطنه، ما لم نطع المرشدين والرسل الذين أرسلهم خالقنا الرحمـن الرحيم الذي جاء بنا من "عوالـم أخـرى" ليحـط بنـا هنا فـي هذا العالم، ثم يسوقَنا من هنا إلى ديار أخرى. بل زد عليه أننا سنُنيط الأشياء والأحداث -وكل منهـا مـن خـوارق القـدرة- وتظاهـراتِ الحـوادث وتحولاتِهـا المختلفة بقوانين الطبيعة، فتتراءى لنا عندئذٍ تلك الخوارقُ البديعة أمورًا عادية ويَدْلَهِمُّ الظلام في آفاقنا.

إن رسـل الحق الهداةَ، والمحظوظيـن المقتدِين بهم، هم الذين قرؤوا الوجود والحوادث قراءة صحيحة دومًا، وسبروا أغـوار الجوهـر مخترقين الشـكلَ والصورةَ، ونَفَـذوا إلى لب الأشـياء وشاهَدوا المعنى في المادة، فاطَّلعوا على بواطنِ كلِّ شيء مع ظواهرها. وبتعبير آخر: إنهم -في تفسيرهم للوجود- ركزوا على المحتوى باستمرار، واستلهموا إشاراتٍ من أشعة التجليات المختلفةِ الموجاتِ والتي تُبدي المؤثِّرَ في كل أثر. ولأنهم مضوا في سبيل سياحتهم وتفكرِهم الروحي مشدودين إلـى الخالـق الجليـل، فقد طـوروا أجزاء العلـم التي حصلوا عليهـا، فحوَّلوها إلى المعرفة الإلهية، وخاضوا في مناسـباتٍ وروابـطَ قلبيـة قويـة مـع المعـروف -سـبحانه- وفاقًـا لأفق العرفان الذي بَلَغوه، فبلغوا "أُنسـا" وافيا بكل شـيء في أجواءٍ كالجِنان، فتوجهوا إليه تعالى وهم في شـبوبِ مشـاعرَ كأنهم تحت شلَّالِ محبةٍ عميقة وذوقٍ روحانيٍّ، في كل آن ولحظة.

فالسـعداء هؤلاء، لهـم نظر خاص إلى الوجـود وما وراء الوجود؛ فهم يطَّلعون على كل شيء بأنوار البصيرة، ويقوّمون الأشياء والأحداث في الدائرة التي وضَعَتْها فيها قدرة الخالق

تعالى، ويتناولون كل شيء بحقيقته في نفس الأمر (بحقيقة جوهره)، وإذ يفسرون الوجود بفهم شموليّ ينتظم كلَّه وجزءَه، يعتنون بتوازنِ كل الأشياء فيما بينها وتناسُبِها، وبروابطها بالخالق تعالى، فلا يقعون أبدًا في تناقض داخلي. ولذلك، هؤلاء وحدهم أفلحوا مدى الدهر في النظر الصائب والفكر الصائب والتعبير الصائب، بشأن حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية؛ فهم وحدهم استطاعوا أن يبينوا التوحيد بجميع ضروریاته ولوازمه، وهم وحدهم استطاعوا أن يبينوا الموازنات السليمة بين الأسماء الإلهية والصفات السبحانية والشؤونات الذاتية مع الذات الإلهية... وكذا هم وحدهم عبروا تعبيرًا صائبًا عن خصوصياتِ دائرةِ الألوهية ودائرة الربوبية باعتبارها تجلياتٍ مختلفةً لنبع واحد.

إن الإنسان القادم من عالم الأرواح إلى الدنيا، والذي سيرحل منها إلى البرزخ، ومن البرزخ إلى الأبدية، لهو بحاجة إلى معرفةٍ فوق المعرفة الإنسانية بل فوق الزمان والمكان، حتى يديمَ السير بأمان وثقة من غير ضياع وتلكؤ وشَدَهٍ وقلق، في هذا الطريق الطويل ذي الخصال الخاصة بها في كل مرحلة.

ولولا أنْ تجلت الإرادة الإلهية بالإحسان في إرسال الرسل، لعجزتْ أخصبُ الأدمغة -على توالي العصور والدهور ومع أعظم الهمة والجهد- عن تحصيل مثل هذه الحقائق قطعًا وبتاتا، بل عجزُها ظاهر للعيان بواقع الحال! وإني لا أجزم منذ الآن، بما قد يطرأ من التغيرات على التفسيرات الحالية للجهات العلمية جراء التوسع في وجهات النظر، نتيجةً للتطورات العلمية في المستقبل، لكن الظاهر عيانًا هو أن دوام الحال -كما هو الآن- محال! ويا ليت أن البشرية التي عاشت في حيرة وغفلة هائلةٍ حتى اليوم، التفتت هنيهة إلى التبليغات الإلهية وتفسيراتِ الأنبياء في شؤونٍ تتجاوزُ إدراكَ البشر مثلِ حقيقة الوجود وما وراء الوجود، وتخلصت مما تتخبط فيه من الجو الخانق الذي تثيره المعلومات المضللة، وحلَّقت في سماء الإلهامات النبوية... فلعل الإنسان عند ذاك كان سينجح في النظر نظرًا أصفى إلى حقيقة الوجود، ويدرِكُ موقعه ومسؤولياتِه في الكون، ويَفهم ما وراء ستار الأشياء والحوادث، ويعي مناسباتِ الأشياء فيما بينها، والتناسبَ السائد والانسجامَ العام في الأوامر التكوينية...

فلعله بذاك كان سيعيش وتيرة الدخول إلى المناسبات مع خالقه تعالى من جهة، ويمتنع عن مخالفة النظام السائد في الكون برمته فلا يتصادم مع الوجود من جهة أخرى. لكن بني الإنسان -وبخاصة الأنفس العاصية في عصرنا هذا- لم يحققوا هذا التوجه السائد، بل عَقُّوا الله وعَصَوْه، وبَقُوا متناقضين مع الأشياء والحوادث فلم ينجوا من العذاب البتة، وما كان لهم أن ينجوا. فكيف، ووسائط العلم الممنوحةُ لهم محدودة، وإمكاناتُهم في حل المشكلات التي تواجههم يسيرة؟ فليس لهم أن يكتشفوا بما يملكونه من الوسائط والإمكانات التي هي أسباب العلم إلا النزرَ اليسير من الوجود، مع التعرض للغلط والتصحيح المستمرَّين، وهو ما حصل.

وكان ينبغي للإنسان أن ينظر إلى تمام الكائنات المحيطة به، والعالمِ الذي يعيش فيه، والنظامِ الموزون، وانسجامِ الأشياء عمومًا فيما بينها... ينظر إليها حسب سعة الكائنات وتداخلِ الأحداث، ثم حسب رحابِ رغباته وطلباته وآماله، وليس بقدر ضِيق أُفقه وانحصارِ علمه وتبدُّل أفكاره... حتى لا يخيب رجاؤه في الحياة التي يعيشها، وفي الطريق الذي يسير عليها، وفي آماله التي يترقبها بطبيعته في نهاية الدرب. لكنه خاب وخسر مرات ومرات، ولا زال..! ولن ينجو من الخيبة والخسران ما دام غيرَ مبالٍ بطريق سيره وبمصيره.

فإن الإنسان القادم من عالم الأرواح إلى الدنيا، والذي سيرحل منها إلى البرزخ، ومن البرزخ إلى الأبدية، لهو بحاجة إلى معرفةٍ فوق المعرفة الإنسانية، بل فوق الزمان والمكان، حتى يديمَ السير بأمان وثقة من غير ضياع وتلكؤ وشَدَهٍ وقلق، في هذا الطريق الطويل ذي الخصال الخاصة بها في كل مرحلة. والحال أنه في الغالب مسكين عاجز أشدَّ العجزِ، وجاهلٌ بما قد يلاقيه بعد خطوتين، حتى في هذه الدنيا التي يَزعم أنه يعرفها معرفة مكينة! إذن لا يمكنه البتة أن يبلغ إلى

مـا يتمنى في هذا الطريق الذي يتطلب برنامجًا وخطة وطيدة. فالمسير طويل طويل، والمحطات كثيرة كثيرة، والطريق وعرة، والجبال شـاهقة والمهاوي سـحيقة. فهل مـن حاجة إلى بيانٍ للاسـتدلال على ضرورةِ وجـودِ هداةٍ عارفين بـآداب الطريق وأركانِه في هذا المسير الشاق إلى المنزل الحق؟

وقد حمل الأنبياءُ كلهم رسالةَ الهداية هذه على مر الزمان، فنشـروا الأنوار في طريقِ سـيرِ الإنسـانية، وكشفوا الغطاء عن أنظار السـائرين في الدرب، وأضاؤوا آفاق أَتْباعهم في حقيقةِ "الله والكائنات والأشـياء"، فأنقذوهم مـن حزن الوحدة وقلق جهل المصير.

لقـد خَطَّـتْ كلُّ حركـةٍ نبويةٍ طريقًا مشـتركًا فـي القضايا الأساسـية منـذ الإنسـان الأول الذي هو النبـي الأول: فنَبَّهت -بلا فتور- إلى الأساسيات، كالتوحيد والبعث والنشور والنبوة والعبودية والعدل... وأدامت الإرشـاد والتنبيه وأنواع التحذير بشـأن المسائل التبعية حسـب الزمان والشروط العامة ودرجةِ النضج الإنسـاني، ولفَتَتْ -دائما- أنظارَ أَتْباعها إلى الأهداف السامية أبدًا. فخطُّ الاستقامة في الحياة الدينية واحد من حيث الأساسـيات. أما في التفرعات، فثم شيء من الاختلاف الذي هو في ذاته ضروري ولازم.

والقـرآن هـو النداء الأخيـر والرسـالة الأخيرة للإنسـانية التي بلغت أَشُـدَّها. هذه الرسـالة الإلهية الأخيرة أكدت على الأساسـيات المحكَمة الثابتة بعينها في الأديان كلها، ووَعدت باسـتيعابِ متطلبـاتِ الأزمنـة والأمكنـة كافة فخَتَمـت كتابَ الديـن. فعلـى الإنسـانية من بعدُ أن تَسـتمر في المسـيرة على نورِ هذه الرسـالة الأخيرة، وأن تَستخدم طاقةَ التطوير والتغييرِ مربوطـةً بنظامهـا، وأن تحقّـق كـدح الوصـول إلـى الحقيقـة المطلقة تحت وصايتها.

نعم، إن العصور الآتية هي عصور القرآن، والسلطنة القابلة هي سـلطنة "مفخرة الإنسـانية" ﷺ. الآذانُ تستمع إلى رسالته، والمشاعل التي تبث النور في الدرب هي مشاعله. نعم، الأمر الفيصـل الآن، هـو لهذا الموحد الأكبر الذي يُرجع كلَّ شـيء إلى التوحيد الخالص. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

أحلام الربيع

الليل عاصف، والريح قاصف،
وكُلُّ شيء كأوراق الخريف يتطاير...
فابتهلنا، وعلى الله توكّلنا، وانطلقنا،
نبشر بالربيع، ونغنّي للعالَم الآتي، والنور القادم...
عاليًا عاليًا نعلو، وآفاق الشهادة نريد،
وعنها إذا جَدَّ الجدُّ لا نَحيد..!
* * *

أ.د. محمد عمارة*

خلق واحد

وتعددية في المخلوقات

أحِبَّ اللهَ يحببك الناس.. ما يحبُّه فأحبَّه، وما يكرهُه فاكرهْه؛ إذن ترتفع منزلتك عند الله وعند الناس، وبهذا وحده تظلُّ عاليَ الشأن رفيع المنزلة..!

* * *

يتحدث القرآن الكريم عن الكون -بعوالمه المختلفة- باعتباره "خلق الله": ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(لقمان:١٠-١١)، فهذا الكون، خلقٌ واحدٌ لخالق واحدٍ.

لكن عوالم هذ الخلق الواحد لا يعلم عددها إلا الله ﷻ، بل إن التعددية والتمايز والاختلاف هي عوالم وآيات إلهية تتنوع إليها وتتمايز فيها كل وحدة من وحدات هذه المخلوقات.

فكل صنف من أصناف الأحياء المخلوقة يتنوع ويتعدد إلى أمم وجماعات، فتقوم التعددية في إطار هذا النوع من الأحياء، كما قامت التعددية في إطار الخلق الحي الذي خلقه الله ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(الأنعام:٣٨).

وهـذه الأرض التي خلقها الله ﷻ وسـوّاها، فيها ألوان وألوان من التعددية والتنوع والتمايز والاختلاف، فهي سـبع أراضين: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(الطلاق:١٢).

أرض واحدة وعوالم عديدة

وفـي هـذه الأرض تنوع وتعدد لا يعلم عدده إلا الله؛ تنوع في الجبـال الرواسـي والأوتـاد التي تحفظها أن تميـد، وتنوع في الأنهار -المالحة والعذبة- تنوع بواسـطة البرازخ التي تخالف وتمايـز مياه كل بحـر من البحار ونهر مـن الأنهار، وتنوع في طبائـع قطـع الأرض المتجـاورات، وتنوع في الثمـرات التي تثمرهـا ذات الأرض الواحـدة التـي خلقهـا الله ﷻ... عالـم، بـل عوالم من التعدديـة والتنوع والاختـلاف، التي لم يحص العلـم الإنسـاني أعدادها في إطار هـذه الأرض: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الرعـد:٣)، ﴿وَفِـي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَـاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الرعـد:٤)، ﴿وَمَـا ذَرَأَ لَكُـمْ فِـي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾(النحـل:١٣). ففي هذه الأرض الواحـدة عوالم عديدة من التعدد العجيب.. "فيها قطع يجاور بعضهـا بعضًـا، وهي مختلـف التربة مع ذلـك، بعضها قاحل وبعضهـا خصـب، وإن اتحـدت التربـة ففيها حدائـق مملوءة بكـروم العنب، وفيها زرع يحصد ونخيل مثمر، وهي مجتمعة ومتفرقة، ومع أنها تسقى بماء واحد، يختلف طعمها... وعلى سطح هذه الأرض خلق الله ﷻ كثيرًا من أنواع الحيوان والنبات والجماد، وجعل في جوفها كثيرًا من المعادن المختلفة الألوان والأشـكال والخواص. وإن في هذه العجائب لدلائل واضحة على قدرة الله ﷻ لمن له عقل يفكر به...".[1]

ومثْل الأرض -في التعددية والتنوع بإطار الوحدة- جاء خلق الله ﷻ للسماء، فهي سبع سموات. وفيها ما لا يعلم عدده إلا الله مـن عوالم الكواكـب والنجوم المجرات: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُـمْ مَـا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّـمَاءِ فَسَـوَّاهُنَّ سَـبْعَ سَـمَوَاتٍ وَهُـوَ بِـكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقـرة:٢٩)، ﴿إِنَّـا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٦)، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(فصلت:١٢).

وبالشـمس والقمـر تعدد المنازل والمدارات، والمشـارق والمغـارب، والليـل والنهار، بالنسـبة لكل موقع على سـطح الأرض وفي كل لحظة من اللحظات: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْـهُ النَّهَـارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۞ وَالشَّـمْسُ تَجْرِي لِمُسْـتَقَرٍّ لَهَا ذَلِـكَ تَقْدِيـرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيـمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَـازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَـابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْـبَحُونَ﴾(يس:٣٧-٤٠)، ﴿إِنَّ إِلَهَكُـمْ لَوَاحِـدٌ ۞ رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۞ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٤-٦)، وعوالم من التعددية والتنوع والاختلاف في إطار السماء التي خلقها الله ﷻ.

ماء واحد وأصناف متعددة

وهـذا المـاء الـذي أنزلـه الله من السـماء، منه العذب السـائغ شـرابه، ومنـه الملـح الأجـاج، ومنـه البحـار والأنهـار ومـا سـلكه الله ﷻ فـي الأرض ليتفجـر عيونًـا وينابيع، مـع التنوع الذي يدركه علم الإنسـان فـي الطعوم والخصائص ودرجات الحـرارة والمكونـات: ﴿أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَاءً فَسَـلَكَهُ يَنَابِيـعَ فِـي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِـهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًـا أَلْوَانُهُ ثُـمَّ يَهِيـجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُـمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِـي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِـي الأَلْبَابِ﴾(الزمر:٢١)، ﴿وَمَا يَسْـتَوِي الْبَحْـرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَـائِغٌ شَـرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَـاجٌ وَمِـنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّـا وَتَسْـتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُـونَهَا وَتَرَى الْفُلْـكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُـوا مِـنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُـمْ تَشْـكُرُونَ﴾(فاطر:١٢)، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾(الفرقان:٥٣).

ومن هذا الماء الواحد تخرج عوالم وألوان وأصناف متعددة ومتنوعـة ومتمايزة ومختلفة من الثمرات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُـدَدٌ بِيضٌ وَحُمْـرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُـودٌ﴾(فاطر:٢٧)، ﴿وَمِـنَ النَّـاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَـامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُـهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَـى اللَّهَ مِـنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَـاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ غَفُورٌ﴾(فاطـر:٢٨)، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَـلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِـنَ السَّـمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِـهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَـتَّى﴾(طه:٥٣)، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى﴾(طه:٥٤).. "فالله ﷻ أنزل من السماء ماء فأخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها،

منها الأحمر والأصفر والحلو والمر والطيب والخبيث، ومن الجبال جبال ذوو طرائق وخطوط بيض وحمر، مختلف بالشدة والضعف، ومن الناس والدواب والإبل والبقر والغنم مختلف ألوانه كذلك في الشكل والحجم واللون.. ثمرات مختلفات الألوان، يروي شجرها ماء واحد، وجبال من ألوان مختلفة يرجع أصلها إلى مادة واحدة. وهكذا سنة الله واحدة، لأن الأصل واحد والفروع مختلفة متباينة".[٢]

وهذه الرياح التي خلقها الله ﷻ هي الأخرى عوالم من التنوع والتميز والتعددية والاختلاف منها ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾(آل عمران:١١٧)؛ أي برد شديد أو سموم حارة، ومنها ﴿رِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(يونس:٢٢)، وأخرى ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾(يونس:٢٢)؛ أي شديدة الهبوب والتدمير، وقد تأتي ﴿قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾(الإسراء:٦٩)؛ أي عاصفًا شديدًا مهلكًا يقصف الأشجار، وكذلك ﴿الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾(ص:٣٦)؛ أي لينة منقادة، ومنها ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾(الذاريات:٤١)؛ المهلكة لمن ولما أصابته، وفيها ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الحاقة:٦)؛ باردة لها صوت شديدة مزعج.. ومن أصنافها ﴿الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾(الحجر:٢٢)؛ للنبتات حاملة لقاح التذكير إلى الإناث، ومنها ﴿الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾(الروم:٣٧)، بالمطر؛ تلك التي تثير السحاب الحامل للماء ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(الروم:٤٨). عالم من التعددية والتنوع، ذلك الخلق الواحد الذي أبدعه بديع السموات والأرض ﷻ.

السببية والأسباب في الخلق الإلهي

وإذا كانت "كلمة الله" هي "خَلْقه"، فإن التعددية والتنوع في هذا الخلق، هي عوالم لا يدري إحصاءها ولا مداها إلا الله ﷻ، بل لو أن أشجار الكون تحولت أغصانها إلى أقلام، وبحار الوجود تحولت إلى مداد لهذه الأقلام، واستدام الإمداد لهذه البحار بالمداد، لما استطاعت هذه الأقلام أن تحصي ما في خلق الله من تعدد وتنوع وتكاثر واختلاف: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(لقمان:٢٧)، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩).

هذا الخلق الواحد الذي أبدعه الخالق الواحد الأحد، قد أودعه خالقه وبث فيه العديد من الأسباب الفاعلة التي تفعل فعل الضرورات في المسبَّبات الناتجة عن هذه الأسباب، وذلك دون أن يكون هناك -في الرؤية الإسلامية- أيّ تناقض بين كون الخالق ﷻ وبين وجود وعمل جميع الأسباب في جميع المسبَّبات.

وهذا الخلق الواحد الذي أبدعه الخالق الواحد الأحد، قد أودعه خالقه وبث فيه العديد من الأسباب الفاعلة التي تفعل فعل الضرورات في المسبَّبات الناتجة عن هذه الأسباب، وذلك دون أن يكون هناك -في الرؤية الإسلامية- أيّ تناقض بين كون الخالق ﷻ -وهو السبب الأول لكل الأسباب والمسببات- وبين وجود وعمل جميع الأسباب في جميع المسبَّبات.

فنحن -في قضية السببية والأسباب المودعة والمبثوثة في الخلق الإلهي- لا نجد أنفسنا إزاء أي تعارض أو تناقض بين الإيمان بواحدية السبب الأول في الخلق، وبين تعدد الأسباب الفاعلة في المسبَّبات، فهي فلسفة لم يختلف فيها مسلم. حتى حجة الإسلام الغزالي الذي توهم ويتوهم البعض إنكاره لعمل الأسباب في المسبَّبات، فإننا نجده يقول: "إن الأسباب والمسببات يتأدى بعضها إلى بعض في الدنيا بترتيب مسبب الأسباب. والله تعالى غير عاجز عن الإشباع من غير أكل، والإرواء من غير شرب، والإنشاء من غير مصاحبة وقاع، والإنماء من غير رضاع، ولكنه رتب الأسباب والمسببات، ولذلك أمر وحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى والراسخون في العلم".[٣]

تعدد الأسباب سنة إلهية

فمسبب الأسباب قد شاءت حكمته أن تتعدد الأسباب الفاعلة في خلقه، وأن تترتب أفعاله على هذه الأسباب والقوى التي أودعها وبثها في هذا الخلق، جاعلًا ذلك سنة من السنن وقانونًا من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل، حتى ليقول ولي الله الدهلوي (١١١٠-١١٧٦هـ) في شرح الآية الكريمة ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾(الأحزاب:٦٢): "اعلم أن بعض أفعال الله يترتب على القوى المودعة في العالم بوجه من وجوه الترتب، شهد بذلك النقل والعقل؛ قال رسول الله ﷺ: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض،

منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب". وسأله عبد الله بن سلام: ما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال: "إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت".[٤]

فالخلق واحد، أودع الخالق فيه العديد من الأسباب والقوى الفاعلة في المسببات. فتعددية الأسباب في إطار وحدة الخلق وواحدية خالق الأسباب والسبب الأول فيها معلَم من معالم التصور الإسلامي للكون الذي يعيش فيه الإنسان، له آثاره على قضية التعددية في ثقافة هذا الإنسان. وإذا كان "العالم" واحدًا، فإن هناك تعددية في زاوية الرؤية لهذا العالم باعتبار موقعه من "القِدم" ومن "الحدوث" تفضي إلى تعددية في الحكم على هذا "العالم" الواحد، باعتبار حظه من "القدم" أو "الحدوث"، بل إن هذه التعددية في زاوية الرؤية قد حلت -في الفلسفة الإسلامية- إشكاليات لم تجد لها حلولا -تبعد الثنائيات المتناقضة- في الفلسفات غير الإسلامية.

قِدم العالم وحدوثه

فالذين قالوا بقِدم العالم نظروا إليه من زاوية شبهه بالقديم وباعتبار الأجرام العلوية التي لا يعتريها الكون والفساد، بينما الذين قالوا بحدوثه قد نظروا إليه من زاوية شبهه بالمحدثات. فالتعددية إنما هي في زاوية الرؤية، والحقيقة أن هذا العالم ليس خالصًا في القِدم ولا خالصًا في الحدوث. وبعبارة أبي سليمان السجستاني (٣٩١هـ) فلقد "عرض الاختلاف بين الناظرين في العالم، أقديم هو أم محدث لأمر لطيف؛ وذلك أن الناظر إلى المركز وجد الشيء الفاسد، فحكم أن الحدوث والقدم قد تعاقبا عليه قدم بالزمان، وحدوث أيضًا بالزمان، فرأى أن الحكم بأنه محدَث واجب. والناظر إلى الأجرام العلوية وجد ما لا يكون ولا يفسد ولا يعتريه دثور، فحكم بأنه قديم. فكان النظران صحيحين من الجهتين المختلفتين".[٥]

ولعل عبارة ابن رشد هي الأدق والأبلغ، تلك التي يقول فيها: "وأما مسألة قدم العالَم أو حدوثه، فإن الاختلاف فيها عندي -بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين- يكاد أن يكون راجعًا للاختلاف في التسمية. وذلك أنهم اتفقوا على أن ها هنا ثلاثة أصناف من الموجودات: طرفان، وواسطة بين الطرفين، فاتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة.

فأما الطرف الأول فهو موجود وُجد من شيء غيره وعن شيء؛ أعني عن سبب فاعل، ومن مادة، والزمان متقدم عليه؛ أعني على وجوده. وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس، وهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع على تسميتها محدَثة. وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء، ولا تقدمه زمان، وهذا أيضًا اتفق الجميع على تسميته قديمًا وهو الله تبارك وتعالى. وأما الصنف من الموجودات الذي بين هذين الطرفين، فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدّمه زمان، ولكنه موجود عن شيء؛ أعني عن فاعل. وهذا هو العالَم بأسره، وبَيّنٌ أنه قد أخذ شبهًا من الوجود الكائن الحقيقي ومن الوجود القديم. فمَن غلَّب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدثات، سماه قديمًا، ومَن غلَّب عليه ما فيه من شبه المُحدَث سماه محدثًا، وهو في الحقيقة ليس محدثًا حقيقيًا ولا قديمًا حقيقيًا، فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة، والقديم الحقيقي ليس له علة".[٦]

إذا كانت "كلمة الله" هي "خَلْقه"، فإن التعددية في هذا الخلق، هي عوالم لا يدري إحصاءها ولا مداها إلا الله ﷻ، بل لو أن أشجار الكون تحولت أغصانها إلى أقلام، وبحار الوجود تحولت إلى مداد لهذه الأقلام، واستدام الإمداد لهذه البحار بالمداد، لما استطاعت هذه الأقلام أن تحصي ما في خلق الله من تعدد وتنوع وتكاثر واختلاف!

فالعالم واحد، والتعددية التي صارت في قضية قدمه أو حدوثه، إنما جاءت من تعدد زوايا الرؤية لهذا العالم. وهي تعددية تفسح لهذا المنهاج مكانًا في تصورات المسلم للكون، ومن ثم في ثقافته التي ترى التعددية والتنوع والاختلاف دائمًا وأبدًا في إطار الجامع الموحِّد لِسِمات وقسمات هذا الاختلاف. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(١) المنتخب في تفسير القرآن، ص:٣٥٣-٣٨٦. وضع "المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية"، طبعة القاهرة، ١٩٨٦م.

(٢) في ظلال القرآن، ج:٥، ص:٢٩٤٢.

(٣) المضنون به على غير أهله، ص:٣١٥-٣١٦، ضمن مجموعة "القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي".

(٤) حجة الله البالغة، ج:١، ص:١٧.

(٥) المقابسات، ص:٣٠١-٣٠٢.

(٦) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ص:٤٠-٤٢.

د. فؤاد البنا*

أنْ تفرض نفسك على الآخرين فرضًا عمل استبدادي.. فلربما تكسب إذعانهم ولكنك لن تكسب محبتهم واحترامهم أبدًا..!

* * *

الفتوحات الناعمة

وأثرها في فتح القلوب

احتفلت مدينة "تريم" عام ٢٠١٠م بتتويجها عاصمة للثقافة الإسلامية، وهي تقع في وادي حضرموت اليمني؛ هذا الإقليم المشهور بسكانه المسالمين الذين هم أبعد اليمنيين عن العنف وحمل السلاح، ورغم ذلك لعبوا دورًا كبيرًا في الفتوحات الإسلامية لمنطقة جنوب شرق آسيا، إضافة إلى تشاركهم مع العمانيين في الفتوحات الإسلامية لمنطقة شرق إفريقيا. شعوب كثيرة وعظيمة اعتنقت الإسلام دون أن يصلها جندي واحد، حيث فُتحت عن طريق الكتائب الناعمة التي حملت لواء الدعوة السلمية،

إن عصرنا هو العصر الذهبي للجهاد الأبيض، إذا أحسن المسلمون استثماره، فإن "الكتب" يمكن أن تسد مسد "الكتائب"، و"الصحف" يمكن أن تقوم مقام "الصفائح"، وتأثير "أسهم" الشركات أقوى من "سهام" الجيوش، وفاعلية "فرق" الدعوة المدنية أفضل من "فرق" الدولة المسلحة.

الدعوة المتسلحة بحسن فهم الإسلام، وحسن تنزيله على الواقع، وجودة تطبيقه في الحياة العملية.

وفي هذا العصر الذي أساء فيه مسلمون للإسلام، بسبب سوء الفهم وسوء التجسيد وسوء التقديم، وأساء فيه خصوم المسلمين إلى الإسلام بسوء نية أو بحسن نية، ومن ذلك ما يرتبط بموضوعنا، حتى زعم الطرفان -رغم الهوَّة الكبيرة بينهما- أن الإسلام انتشر بقوة السيف، حيث اختُزل الجهاد الإسلامي في القتال، فهل الحقيقة كذلك؟ هذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه، مركّزين على دور الفتوحات الناعمة في نشر الإسلام.

هل الجهاد هو القتال؟

في عصور التخلف تفقد المصطلحات معانيها، ويتم الخلط بين كثير من الكلمات المختلفة، تحت عناوين عديدة منها الترادف، بمعنى أن هناك اتجاهات في أوساط المتدينين -من أصحاب التدين المنقوص- نظرت إلى الجهاد كمرادف للقتال. وحتى ندرك الفرق بين الكلمتين، فسنحاول معرفة معاني مصطلح الجهاد في لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم، أما القتال فهو معروف. من يقرأ قواميس العربية سيجد أن الجهاد ومشتقاته كالمجاهدة والاجتهاد والتجاهد، لا تخرج عن معنى بذل الوسع واستفراغ الطاقة لدرجة الشعور بالإجهاد.

والاجتهاد: أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمل المشقة، يُقال جهدتُ رأيي وأجهدته: أتعبته بالفكر، والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو. والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس، وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾(الحج:٧٨)، ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(التوبة:٤١)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(الأنفال:٧٢).

ويمكن اعتبار الجهاد في التعبير القرآني محاولة للوصول بالفعل إلى ذروة فاعليته البشرية، ببذل ما يستطاع من الأسباب، واستنفاد ما يمكن من الوسائل والأساليب من أجل تحقيق الغاية المقصودة. وبعبارة أدق يمكن القول، إن استفراغ الوسع وبذل أقصى درجات الطاقة يمكن أن نقول عنها "اجتهادًا" إذا كان في الجوانب العلمية، و"جهادًا" إذا كان في الجوانب العملية. ويدخل القتال ضمن مفردات الجهاد، لأن المقاتل يستفرغ وسعه في محاولة تحقيق الهدف المقصود من وراء هذا القتال، بمعنى أن كل مقاتل في سبيل الله مجاهد، وليس كل مجاهد مقاتل. وبمزيد من استعراض آيات الجهاد والقتال، ستتضح الفروق بينهما، وهذه بعض الفروق:

١- شُرع القتال في المدينة المنورة بنزول قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(الحج:٣٩). أما الجهاد فقد شُرع في مكة رغم حرمة القتال في المرحلة المكية كما هو معلوم، بل حرم الرسول ﷺ على أصحابه ﷺ حتى مجرد الدفاع عن أنفسهم أمام اضطهاد قريش وتعذيبها لهم. وقد وردت آيات عدة تحدثت عن الجهاد في عدد من السور المكية، أهمها العنكبوت، النحل، الفرقان، لقمان. وهكذا فإن الجهاد مكي والقتال مدني.

٢- الجهاد منظومة كاملة لعمارة الحياة وتعبيد الناس لله ﷻ عن طريق البيان والإقناع، وبالتالي لا يتوقف الجهاد في أي ظرف. أما القتال فهو حالة استثنائية، تأخذ حيزًا زمانيًا،

ومساحة مكانية محدودتين بحسب الضرورة، بمعنى أنه آخر الدواء، فهو شبيه بالكَيّ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا﴾(البقرة:١٩٠).

٣- لا يجوز التوقف أبدًا عن معانقة أسباب الجهاد لعبادة الله ﷻ في محراب الحياة، باستعمار الأرض وخدمة حقوق الآخرين. أما القتال فهو ضرورة آنية، ومن الضرورة بمكان أن يفقه المسلم أحكامه حتى لا يعتدي على أحد، لكن الأصل في علاقته مع الآخرين هو السلام، قال تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الممتحنة:٨). ولهذا فإن المؤمن مأمور بالاستزادة في مضمار الجهاد، أما القتال فإن من نعم الله ﷻ على المؤمنين كفايتهم له، قال تعالى: ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(الأحزاب:٢٥)، ولهذا نهى النبي ﷺ عن تمني لقاء العدو، وعندما فرض الله ﷻ القتال وضّح كراهة الطبيعة البشرية له فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦).

٤- أجاز الإسلام جهاد المنافقين ولم يجز قتلهم إلا عند الخروج على النظام العام للمجتمع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(التوبة:٧٣). ومن المعلوم أن الجهاد هنا ليس قتالاً، بدلالة عدم قتل الرسول ﷺ للمنافقين، ورفضه لمحاولة بعض الصحابة كعمر بن الخطاب ﷺ لقتل بعض زعمائهم ولا سيما عبد الله بن أبي، مما يؤكد أن جهاد المنافقين هو جهاد أبيض، تستخدم فيه كل الأسلحة المتوفرة في كنانة "الحكمة"، وحتى في كنانة ما أصبح يسمى في الفكر السياسي المعاصر بـ"الحرب الباردة"، بحيث لا يؤدي أي سلاح منها إلى إراقة الدماء، لأن الغاية من جهادهم إعادتهم إلى رشدهم، أو تحجيمهم وهتكهم وكشف مؤامراتهم وفضح أسرارهم، كما فعلت سورة التوبة التي سميت بالفاضحة، حتى لا تنطلي أراجيفهم على المسلمين.

الجهاد أوسع دائرة من القتال

إن تدبر آيات القرآن الكريم، واستقراء سيرة المصطفى ﷺ -وهي التجسيد العملي للقرآن- يؤكدان أن ميدان الجهاد أوسع بكثير من القتال. فإن تجويد التربية والتعليم، والترقي بالأفكار والأفعال، والوصول إلى الفاعلية في صناعة الحياة والقضاء على مظاهر ومسببات الوهن والغثائية، وصناعة الأرقام الصحيحة في ميادين التميز والتفرد وخدمة حقوق الإنسان، من خلال شُعب الإيمان وميادين الحياة، كلها مساحات واسعة في ميدان الجهاد.

أما القتال فدائرته ضيقة لا تستوعب إلا حالات خاصة ومحددة في المواجهة المسلحة، كلها استثنائية. فمن يستحقون القتال هم استثناء ممن يستحقون السلام، وظروف القتال زمانًا ومكانًا تظل محدودة. وحتى في المساحات الجائز فيها القتال، فإن المقاتل المسلم لا يتحرك في هذه الدائرة إلا بحذر شديد، حتى لا يقع في الاعتداء المنهي عنه شرعًا. فلا يجوز قتل المستسلم أو من اعتنق الإسلام، ولا مطاردة الفار ولا التمثيل ولا القتل بدون حاجة، ولا الفساد في الأرض كالتدمير لمقدرات المقاتلين إلا للضرورة القصوى، والضرورات تقدر بقدرها بالطبع.

إن الجهاد أوسع مساحة، لأنه ممتد زمانًا ومكانًا وأناسًا بدون حدود، ولذا فإن مدخلاته أكثر بكثير من مدخلات القتال. وأهم مدخلات الجهاد هي الأموال، لأنها التي تقوم بتربية وتنمية الأفراد وخدمة حقوقهم وتلبية متطلباتهم، وإيجاد المشاريع العملاقة التي تستثمر طاقات الأرض في عمارتها؛ زراعة وصناعة ورعيًا وصيدًا وتجارة. وقد اقترن ذكر الأموال والأنفس في القرآن في اثني عشر موضعًا، فتقدمت الأموال في أحد عشر موضعًا، لأن الجهاد أحوج إلى الأموال أكثر من الأنفس، ولم تتقدم الأنفس إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾(التوبة:١١١)، لأنها جاءت في سياق الحديث عن القتال، والقتال يحتاج إلى الأنفس أكثر من الأموال، ثم إن سياق الآية يتحدث عن شراء الله ﷻ لما يملكه الإنسان، ومن الطبيعي أن نفس الإنسان أغلى عليه من ماله، فبدأ الله ﷻ بما هو أثمن.

وفي عصور التخلف أصيبت مجاميع كبيرة من المسلمين بالأمية الفكرية نتيجة ضيق دائرة وعيها، وانعكس هذا الضيق على تضييق كثير من الدوائر المتسعة، مثل دائرة العبودية التي هي بسعة هذه الحياة، لكن هؤلاء ضيقوها على الشعائر التعبدية، وفي دائرة العلوم الشرعية التي كانت تتسع لكل العلوم التي تساهم بجلب مصلحة أو درء مفسدة للمسلمين في معاشهم أو معادهم، ضاقت الدائرة لتضم فقط ما يُعرف اليوم بالتخصصات القائمة في كليات الشريعة والدراسات

إن الإسلام لا يقبل الإيمان ما لم يكن ناتجًا عن قناعة كاملة واختيار ذاتي حر. وإن غاية الإسلام العظمى هي إصلاح البنى السياسية والاجتماعية المعوجة التي لا تسمح بحرية الحركة للفكرة الإسلامية، بحيث تستطيع الدعوة الوصول إلى الناس، ويستطيعون العبور إليها إذا أرادوا بدون موانع.

الإسلامية، ولتخرج كل العلوم الإنسانية والطبيعية من هذه الدائرة. ومثل مصطلحي العبادة والعلوم الشرعية، ضاقت مصطلحات الأخلاق، رحمة الله، جماعة المسلمين، وبالمثل ضاقت دائرة الجهاد لتضم فقط القتال. ولذلك فإن من يذكر الجهاد اليوم يقصد في الغالب القتال، أو على الأقل يتبادر إلى أذهان السامعين القتال.

الجهاد الكبير.. جهاد الإعمار

القتال في الرؤية الإسلامية هو آخر مراتب الجهاد، سواء من ناحية عدم اللجوء إليه إلا للضرورة، مثل عمليات البتر لأي عضو في الإنسان، إذ لا يلجأ الطبيب للبتر إلا بعد استنفاد كل الأدوية، مع استمرار المشكلة في التصاعد، والتهديد بتضخمها أو الإنذار بتحولها إلى مشكلة عاصفة بالجسم كله، أو من ناحية عدم استخدامه إلا بعد إيجاد البنى التحتية الأخرى التي تجعله خيارًا ضروريًا وناجحًا في آن، لضمان تحقق الهدف بأقل الخسائر المادية الممكنة وبأقل وقت، ولذلك رفض الرسول ﷺ القتال في مكة، لأنهم لم يستنفدوا أسباب الدعوة (الجهاد) ولم يستكملوا البنية التحتية التي ستتحمل أعباءه. وقد يرى غير المتفقهين في الإسلام من أبنائه أن القتال خيار قريب المنال؛ نتيجة عجزهم عن القيام بأعباء الجهاد وتوفير متطلباته، سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الجمعي.

ومن أمثلة المستوى الفردي، ما كان يفعله الجاهليون العرب الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم، ومع ذلك فإن عجز بعضهم عن تحمل أعباء طلب الرزق لكفاية الأولاد -وهو من صور الجهاد- دفعهم إلى قتل هؤلاء الأولاد، فنهاهم القرآن قائلًا: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾(الإسراء:٣١).

أما بالنسبة للمستوى الجمعي، فإن أبرز مثال له اليوم، لجوء بعض التيارات إلى القتال، إما ضد الغرب أو ضد الحكومات القائمة في بلدان المسلمين، تحت عنوان "الجهاد"، نتيجة العجز أو عدم الصبر عن تحمل أعباء الجهاد الحقيقي؛ جهاد التربية والتعليم، جهاد المدافعة واستثمار السنن، جهاد العلم والعمل، جهاد الإنتاج والتنمية، الجهاد السياسي والاجتماعي، الجهاد الإعلامي والثقافي... الجهاد الذي يستثمر طاقات القرآن غير المحدودة، وفاعلياته العظيمة، وقواه الذاتية المطلقة، في تعظيم فاعليات الناس بربطهم به، وانطلاقهم منه، ودورانهم حول محاوره، وسعيهم لتحقيق مقاصده، وصولًا بهم إلى الدوران حول فلك الإسلام، والسعي الحثيث في كل شُعب الإيمان.

ولهذا أمر الله ﷻ رسوله ﷺ بأن يجاهد الكافرين بالقرآن فقال: ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٢)، وهذا الأمر كان في مكة المكرمة وقبل أن توجد الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، بما يؤكد أن الجهاد مرتبط بالدعوة، بينما يكون القتال ألصق بالدولة التي من حقها اللجوء إليه عندما تستكمل مفردات الجهاد الكبير، متمثلة بالدعوة إلى القرآن وتعليمه واكتشاف كنوزه وهداياته وتطبيقها في الواقع، حتى تكون الدولة أداة لخدمة حقوق الله وحقوق الناس، وإقامة كل معروف وهدم كل منكر، مما له صلة بواقع الناس معاشًا ومعادًا، ولهذا وصف الله ﷻ القائمين على السلطة الإسلامية فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(الحج:٤١).

وبالقرآن صارت جاذبية "الدعوة" أقوى من تأثير "الدولة"، ولذلك دخل الناس في الإسلام أفواجًا، متأثرين بالقوة الذاتية للقرآن، إذ نجح في مناجاة القلوب ومخاطبة العقول، جامعًا بين الإقناع والإمتاع، مع كونه زادًا للروح وداعية للتزود بكل حاجات الجسم، وظهرت محاسنه بالأمس بسبب حسن تمثل الصحابة لقيمه ومقاصده، حتى صاروا قرآنًا يتحرك على الأرض. لقد دخل الناس في الإسلام عندما فتح القرآن عقولهم وقلوبهم، ولذلك ذكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن المدينة المنورة فُتحت بالقرآن. والحقيقة أن كل الفتوحات التي تحققت في العقود الأولى من تاريخ أمة المسلمين، كان القرآن هو سببها وأداتها، هداية وإعجازًا. أما القوة المسلحة، فقد كانت وظيفتها فتح الأبواب الموصدة، من أجل دخول الدعاة من حملة القرآن الذين أحسنوا حمله أفكارًا وأفعالًا، فصاروا إعلانات متحركة لعظمة هذا القرآن، بما يؤكد أن الدولة كانت مطية للدعوة، وأن الدعوة هي التي أقنعت الشعوب بالولوج إلى الإسلام، احتماءًا بعبادة رب العباد من عبادة العباد، واعتصامًا بعدل الإسلام من جور الأديان.

الدولة مطية الدعوة

في المرحلة المبكرة من تاريخ هذه الأمة، أحسنت الدولة حمل الدعوة الإسلامية بأفعالها أكثر من أقوالها، وبشرائعها لا بشعاراتها، حتى صارت مطية للدعوة، أوصلتها إلى كثير من شعوب الأرض، لكنها لم تتدخل في إدخال الأفراد في الإسلام. فقد كانت هذه مهمة الدعوة الإسلامية القائمة على الحكمة والموعظة الحسنة، وعلى المحاورة والإقناع.

فإن الإسلام يؤمن بالعالمية لا بالعولمة، وهو لا يقبل الإيمان ما لم يكن ناتجًا عن قناعة كاملة واختيار ذاتي حر. ويمكن القول بطمأنينة قائمة على قراءة واعية لوظيفة القتال في الإسلام، أن غايته العظمى هي إصلاح البنى السياسية والاجتماعية المعوجة التي لا تسمح بحرية الحركة للفكرة الإسلامية، بحيث تستطيع الدعوة الوصول إلى الناس، ويستطيعون العبور إليها إذا أرادوا بدون موانع. فإن القتال يكون آخر الأدوية في صيدلية "الجهاد"، بل هو على وجه أدق، غرفة العمليات في مستشفى الجهاد. ولذلك نستطيع القول إن كل الشعوب الإسلامية دخلت إليه من أبواب الفتوحات الناعمة.

الفتوحات الناعمة الصرفة

وإذا كان هناك شك في أن القرآن هو فاتح الشعوب الأولى التي وصلتها جيوش المسلمين، فإن الأقدار قد هيأت نماذج لا لبس فيها، إذ لم يصل إليها أي جندي مسلم وأعداد أبنائها اليوم يساوون قرابة نصف العدد الإجمالي للمسلمين، ويتوزعون في ثلاث مناطق رئيسة في العالم، هي:

منطقة جنوب شرق آسيا: هذه المنطقة كانت تدين بالديانة البوذية وبعض الوثنيات المحلية، وتضم اليوم حوالي ٢٥٠ مليون مسلم، وهم سدس مسلمي العالم، ويتوزعون في عدد من البلدان تبدأ من أقصى الشرق بالفيليبين وتنتهي بجزر المالديف في وسط المحيط الهندي، وبينهما أندونيسيا وماليزيا وبروناي، وهي شعوب ذات أغلبية إسلامية كبيرة إلى اليوم رغم كرّ الليالي وفرّ الأيام.

وهناك أقليات كبيرة في الفيليبين، وتتركز في إقليم مورو (مندناو) وتشكل ١٢٪ من سكان الفيليبين، ومثلها في تايلند التي يتركز المسلمون فيها في الجنوب في إقليم "فطاني" المحادد لماليزيا، وتوجد أقلية في بورما تتركز في إقليم "أراكان" المحادد لبنجلاديش، إضافة إلى أقلية في سنغافورة وهي الدولة التي اقتطعها الإنجليز من ماليزيا، الدولة الإسلامية الأقوى علميًا وصناعيًا في هذه المنطقة، بل وفي العالم. وفي كل مراحل التاريخ القريب تناقصت أعداد المسلمين -ولولا القوة الذاتية للإسلام- وقناعة أولئك الناس بالإسلام، نتيجة جودة الدعوة التي قامت بها كتائب الفتوحات الناعمة عبر التجار العرب، ولا سيما الحضارمة منهم، لصار المسلمون في هذه المنطقة أثرًا بعد عين.

منطقة القرن الإفريقي وشرق إفريقيا: رغم أن طلائع المسلمين وصلت إلى هذه المنطقة في وقت مبكر من تاريخ الدعوة أثناء هجرة مسلمي مكة إلى الحبشة، إلا أن قلة المسلمين لم تمكنهم من تحقيق فتح كبير لهذا الدين، وخاصة أنهم عادوا بعد قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة. وعندما انداحت فتوحات المسلمين التي كانت الدولة فيها مطية للدعوة، لم يصل أي جندي إلى هذه المنطقة، وفي أوقات متتابعة كانت كتائب الفتوحات الإسلامية تشق هذه المجتمعات، فاتحة بأخلاقها الزاكية ومعاملاتها الرائعة قلوب الناس وعقولهم لهذا الدين.

واليوم وبعد قرون من التخلف والتراجع ما تزال هذه

المنطقة تضم شعوبًا ذات أغلبية مسلمة في الصومال وجيبوتي وتنزانيا وإرتيريا وجزر القمر، بل تعربت أكثر هذه الشعوب، وثلاثة منها اليوم هي أعضاء في جامعة الدول العربية، إضافة إلى وجود أقليات إسلامية كبيرة في كل دول المنطقة، ولا سيما في أثيوبيا، وكينيا، وموزمبيق.

منطقة غرب إفريقيا وجنوب الصحراء: في هذه الظروف العصيبة التي توقف فيها المد الإسلامي تذكر الأرقام الرسمية الموثقة، أن هذه المنطقة توجد فيها خمس عشرة دولة تفوق نسبة المسلمين فيها الـ٧٠٪، وتليها عشر دول تزيد نسبة المسلمين فيها عن الـ٥٠٪ من مجموع السكان. إضافة إلى وجود نسب أقل في كل دول المنطقة. طبعًا هذه الأرقام قائمة بعد عقود طويلة من الاستعمار الغربي لهذه البلدان، ولا سيما فرنسا التي أخذت نصيب الأسد فيها، وبعد قرون من الجَزْر الإسلامي الذي قابله مد مسيحي قوي، لكن بقاء قرابة مائتي مليون مسلم في هذه المنطقة، إنما هو تجسيد لقوة هذا الدين الذاتية، وتأكيد على أهمية وعظمة الفتوحات الإسلامية الناعمة، إذ لم يصل أي جندي مسلم إلى هذه المناطق الشاسعة من الأرض، بل وصلها التجار الذين كانوا يُسوِّقون أفكارهم الإسلامية الثمينة قبل بضائعهم، بجانب رجال التصوف الذين لعبوا دورًا مشهودًا وسط شعوب هذه المنطقة التي تضم أكبر الشعوب الإسلامية في قارة إفريقيا قاطبة، وهو الشعب النيجيري الذي يزيد سكانه عن ١٤٠ مليون، ٦٥٪ منهم -على الأقل- مسلمون.

ويكفي الفتوحات الناعمة فخرًا أنها جذبت إلى الإسلام أكبر شعب مسلم في قارة آسيا وهو الشعب الأندونيسي، وأكبر شعب مسلم في إفريقيا وهو الشعب النيجيري. وتوجد في العالم مناطق وبلدان أخرى انتمت إلى الإسلام، حبًا بالدعوة وإعجابًا برجال الفتوحات الناعمة، مثل بعض المناطق في جنوب الصين، وشمال آسيا، حيث المناطق التي تقع شمال القوقاز، وحتى سيبيريا التي تمتد من روسيا إلى المحيط الهادي، وهي المناطق التي لعب الدعاة والتجار الآتين من بخارى، دورًا كبيرًا في إسلام كثير من أهاليها. وينطبق مثل هذا الكلام على شبه جزيرة القرم التي تقع شمال شرق أوربا، وهي اليوم جزء من جمهورية أوكرانيا.

وإذا كانت الكتائب العسكرية قد انهزمت أمام اجتياح المغول والتتار للدولة العباسية، إذ تساقطت مثل أوراق الخريف، فقد رفعت الكتائب الناعمة لواء الإسلام عاليًا، حتى نجحت في إقناع الغزاة باعتناق الإسلام. ولأول مرة في تاريخ البشر يقوم الغالب بتقليد ثقافة المغلوب إلى حد اعتناق عقيدته، مما يؤكد جدارة الفتوحات الناعمة، ويثبت أنها الأكثر لياقة بمقاصد هذا الدين العظيم وعالميته الإنسانية الرحيمة، ويؤكد انتصار القلم على السيف، والمداد على الدم.

المستقبل للكتائب الناعمة

من يرى قوافل العلماء والباحثين الغربيين الذين يهاجرون سنويًا إلى الإسلام، يدرك عظمة هذا الدين، لكنه يدرك أيضًا خطورة انحطاط المسلمين، إذ ما زال الإسلام أشبه بجوهرة بيد فحام. ويستغرب كل من يتعرف على الإسلام لبعد المسافة القائمة بين تقدم الإسلام وتخلف المسلمين. ولذلك فإن المسلمين لو جَسَّروا المسافة القائمة بينهم وبين إسلامهم، لصار ذلك فتحًا عظيمًا لهذا الدين.

فالعصر عصر الإسلام لولا سلوكيات المسلمين التي صارت فتنة للذين كفروا. فكيف لو أضيف إلى ذلك تشجيع الجهاد المدني الممنهج؟ هذا الجهاد الأبيض الذي يتسق مع طبيعة هذا الدين، ويمكنه الانغراس بسهولة في قلب هذا العصر.

إن المستقبل للجهاد الأبيض الناعم، فإن اليد في الرؤية الإسلامية، لا تمتد إلا إذا مُنع اللسان من التمدد، ولا يتدخل السيف إلا إذا كُسر القلم. في الجهاد المدني لا تتحرك الدبابة ما دامت أقدام الدعاة تدب على الأرض بحرية، ولا تنطلق الطائرات مغيرة على أحد ما دام صوت الإسلام يطير عبر أثير الإذاعات وقنوات التلفزيون... والأيام تثبت أن هذه القنوات ومواقع الإنترنت، أسرع وأكثر فاعلية من الصواريخ والبوارج الحربية في تطيير حقائق الإسلام وأوضاع المسلمين إلى كل بيت في العالم، لأن الإسلام عظيم، ولأن قضايا المسلمين عادلة.

هذا هو العصر الذهبي للجهاد الأبيض، إذا أحسن المسلمون استثماره، فإن "الكتب" يمكن أن تسد مسد "الكتائب"، و"الصحف" يمكن أن تقوم مقام "الصفائح"، وتأثير "أسهم" الشركات أقوى من "سهام" الجيوش، وفاعلية "فرق" الدعوة المدنية أفضل من "فرق" الدولة المسلحة. ■

(*) أستاذ مشارك للفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

د. مريم آيت أحمد*

حوار الذات

مدخل أساس لحوار الآخر

تؤدي الممارسات التقليدية في المعاملات، بدءًا من البيت والمدرسة والمجتمع إلى السلبية. ومن هذه الممارسات، عدم التربية على الحوار وسيادة الطرق التسلطية، وعدم منح الفرد فرص التصرف والتدخل لحل مشكلاته والمساهمة في اتخاذ القرارات والعمل على تنفيذها. كل ذلك يؤدي بالشباب -مع مرور الزمن- إلى تميزه بالسلبية والاتكالية، وغياب الجرأة على مواجهة المشكلات المطروحة أمامه داخليًا، لأن عدم تأهيل وتدريب أبنائنا على الحوار، يؤدي بهم إلى رفض الآخر، كما يرفض رأيهم داخل البيت والمدرسة والمجتمع، ومن ثَم عدم الثقة بالنفس وبقدراتها، وسيادة عقلية المؤامرة والإحباط عِوض عقلية الإرادة والإنجاز والفاعلية

والمشاركة. وهكذا فإن الممارسات التربوية والأسرية والاجتماعية، تساهم في تدعيم سمات السلبية الحوارية عند الشباب داخل مجتمعاتهم.

فكيف يمكن الحديث عن الآخر الخارجي وتجاوز عوائق الحوار الداخلي؟ هل أعددنا شبابًا قادرًا ومؤهلًا معرفيًّا وسلوكيًّا ودينيًّا وفكريًّا وسياسيًّا وتكنولوجيًّا وإعلاميًّا... لمحاورة الآخر الحضاري من موقع الندّية، والمشاركة في المنجز الحضاري لا من موقع الدونية ورد الفعل الآني والتبريري لمواقف يصدرها صانعو ثقافة الصراع الحضاري؟

إن شبابنا يدرك يقينًا أن المهمة التي يقتضيها حوار الداخل، لا تقل أهمية وخطورة عن حوار الخارج. قد نتفاءل بالتأطير النظري لأسس ومقومات هذا الحوار الخارجي، لكن الواقع -ونعني الواقع الداخلي- يحتوي قدرًا من العوائق التي تحتاج إلى نظر أوسع وأعمق، أشجع وأشفى من الثقة الزائدة بسلامة معطياتنا الفكرية والتاريخية.

مفتاح الحوار الثقافي

إن الحوار الإسلامي بين مكونات الذات قد يكون مفتاحًا حقيقيًّا لحوار ثقافي مع الآخر. فمثل هذا الأساس يجعل الحوار يستند إلى القوة ويراهن على القوة. ومن دون القوة واستمرار الاختلالات البنيوية الداخلية والصراع الداخلي، فإن الحوار لن تقوم له قائمة؛ معنى ذلك أن أمةً ما لا تملك مفاتيح الحوار الداخلي، كيف تتمكن من إجراء حوار مع الآخر؟! وحتى لو تحدثنا عن تعارف ثقافي، فالأمة التي لا تعرف نفسها ولا تزال تمارس التجهيل والنسيان في حق أبنائها، وتتنكر لبعضها البعض ولتاريخها وجغرافيتها، هي -بلا شك- أعجز عن أن تقيم تعارفًا بينها وبين الآخر.

وبلا شك، فإن عنوان "الأمة الإسلامية" غير كاف، طالما أن الحوار "الإسلامي-الإسلامي" يفرضه التنوع الثقافي للمجال الإسلامي، مما يقتضي تعارفًا وحوارًا ثقافيًّا داخليًّا. حوار "إسلامي-إسلامي" وأيضًا حوار "إسلامي-مسيحي"، باعتبار الأمة الإسلامية تتسع لإطارات ثقافية أخرى وأقليات متنوعة ومختلفة ومتعايشة. إن ثمة فرصة أمام العالم الإسلامي في أن يقدم للعالم نموذجًا حواريًّا؛ يبدأ بأن يقيم نموذجًا داخليًّا مصغرًا عن حوار الثقافات يزيد في دعمه وتعزيزه وإنجاحه.

فديننا أصّل للحوار مع الآخر نظريًّا وتطبيقيًّا، وتاريخنا الإسلامي زخرت صفحاته بنماذج جدّ راقية في التطبيق العملي لأدبيات الحوار، وأسس ومرتكزات التعايش مع الآخر دينيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، في الشام والأندلس وصقلية وسمرقند، لكننا اليوم كمجتمعات وأفراد، لسنا من يعلِّم العالم هذه المبادئ والقيم والمُثل العليا بالأوضاع التي نحن عليها. فعلينا أولا العمل على إعادة صياغة العقل العربي والمسلم بما يؤهِّله للتعمُّق في عناصر قوة حضارته، ليكتشف عناصر التقدّم والنهوض والمكوّنات الحيَّة في الحضارات، ونفهم منطلقها الداخلي وقوانينها في التقدّم ومحركات التاريخ فيها.

إنه قد آن الأوان اليوم مع الثورة الإعلامية وانفتاح العالم على بعضه، أن يصوّب شبابنا الرؤية والموازنة بين العاطفة والعقل كشرطين أساسيين، لحسن إدارة مستويات التحديات بالحكمة التي لا يَقْدر على استيفائها إلا أهل الفكر والعلم من شباب الأمة.

الشباب وسؤال "مَن الآخر؟"

لعل أول سؤال يتبادر إلى أذهان شبابنا -ونحن ندعوهم للحوار- هو تحديد ماهية الآخر الحضاري المعنيّ بالحوار؟ وقد نحصر الإجابة في ثلاثة محاور:

١- إن هذا الآخر الذي نريد الحوار معه، يتمثل عادةً في العقل الجمعي لمفكرينا وشبابنا في الغرب، وكأن العالم كله الآن يتجسَّد في هذه القبلة؛ فمن حدّد الآخر وجعله الغرب وحده؟ ومن قال إن الثقافة الغربية هي الثقافة الوحيدة في العالم؟ علمًا بأن هناك ثقافات أخرى منها الثقافة الصينية والهندية واليابانية، وهناك ثقافات دول أمريكا اللاتينية، بل إن هناك ثقافات موزعة من إفريقيا إلى آسيا متنوعة وغنية لسنا على علم بخصائصها ومكوناتها الثقافية والفكرية. ولهذا فإن من الخطأ أن نتصور أن الثقافة الغربية هي الثقافة الوحيدة التي ينبغي أن نتحاور معها. فالحضارة الصينية من أكثر الحضارات امتدادًا في أعماق التاريخ مع وجود عصري واضح ومميز، واليابان التي تمثل الآن أحد أركان المنظومة الكونية في التقدم العلمي والتكنولوجي، لها جذورها التقليدية التي تحرص عليها ولم تفرط فيها، وكذلك دول شرق آسيا التي

لحقت بالعصر دون أن تفقد امتدادها التاريخي، وهناك نماذج إسلامية واضحة حافظت على عقيدتها وجذورها ولم تتخلف عن العصر بكل إنجازاته، وفي شرق آسيا أكثر من نموذج، حقق هذه المعادلة مثل ماليزيا وأندونيسيا. وهذا لا يعني إلغاء الحوار مع الغرب بأي حال من الأحوال في إطار التلاقح الثقافي والمعرفي والتكنولوجي؛ لأن الانفتاح والتلاقح سمة من سمات البناء الحضاري في الإسلام. هذا وعلى شبابنا اليوم أن يدرك أنه -وإن كان التواصل مع الوجه الآخر من الغرب، في غمرة الغضب والمرارة وردود الفعل التي أعقبت الغزو الاستعماري لبلداننا مرتبط باستبداد وتصاعد وتيرة العنف مقابل ضغط وتقليص ملَكات التفكير، فبدا لنا الغرب بانتهاكاته التاريخية وكأنه شرٌّ كله- فإنه قد آن الأوان اليوم مع الثورة الإعلامية وانفتاح العالم على بعضه، أن يصوّب شبابنا الرؤية والموازنة بين العاطفة والعقل كشرطين أساسيين، لحسن إدارة مستويات التحديات بالحكمة التي لا يَقْدر على استيفائها إلا أهل الفكر والعلم من شباب الأمة. وفي إطار هذا التصويب، لابد من الإقرار بأن الغرب ليس كتلة واحدة، بل تخترقه وتختمر داخله تيارات واتجاهات وأصوات رافضة لقيم المركزية الغربية المستبدة، وما المظاهرات الصاخبة والمناهضة للحرب على منطقتنا التي عرفتْها عواصمُ الغرب وحملات التعاطف مع العراق، إلا وجه من وجوه غربٍ آخر مغايرٍ لغرب التسلّط والاستكبار. وهذا يتطلب من الباحثين الشباب أن يوجدوا قنوات التواصل مع هذا الوجه الآخر من الغرب، مستثمرين تضامنه مع قضايانا ورفضه لقيم غيّبت مركزية الإنسان في الكون، وتبنَّت منهج العنف والبقاء للأصلح في سوق النخاسة العالمي. إن فتح شبابنا لقنوات التواصل مع هؤلاء أكاديميًّا وفكريًّا وإعلاميًّا، سيحوّلهم إلى أقلام تنقل بموضوعية قضايانا العادلة، إلى قلب المجتمع الغربي الذي يحكم علينا انطلاقًا مما تتداوله وتسوّق لترويجه بعض الدوائر الإعلامية والسياسية المتعصبة.

إن أمةً ما لا تملك مفاتيح الحوار الداخلي كيف تتمكن من إجراء حوار مع الآخر. إن ثمة فرصة أمام العالم الإسلامي في أن يقدم للعالم نموذجًا حواريًّا؛ يبدأ بأن يقيم نموذجًا داخليًّا مصغرًا عن حوار الثقافات يزيد في دعمه وتعزيزه وإنجاحه.

٢- لا يمكن تصور حوار من طرف واحد، لأن بديهيات الحوار أن يكون بين طرفين، وبين وجهتي نظر. وعندما يصبح الحوار حديثًا من طرف واحد، فهو يفقد أبسط قواعد الحوار. ومن هنا يجب أن يكون الحوار سعيًا من جانبين وليس من جانب واحد، لأن مقصد الحوار مع الآخر لا يعني أن أقول له ما أريد، ولكن أن نصل معًا إلى صيغة لما نريد. وإذا تحول إلى استجابة لمطالب طرف واحد فهو يدخل في نطاق الوصاية والهيمنة والتبعية.

ومن جانب آخر، فشروط الحوار تقتضي من شبابنا الانفتاح بثقة عالية ورفض عقلية قداسة الذات وإقصاء الآخر بدعوى المؤامرة من جهة، كما تقتضي من جهة أخرى توضيح سلبيات وهفوات نغمة التعالي التي يتحاور بها هذا الآخر معنا تحت شعار "الإسلاموفوبيا"، وما تتداوله من تسويق لمنتجاتها تربويًّا وإعلاميًّا وسياسيًّا. فشبابنا في حاجة إلى ترشيد وتأهيل كوادر تشارك في عملية الإنجاز والفاعلية الحضارية بمستوى الندية على كافة المستويات، لا بخيار الانعزال والهروب بانكسار وانهزام من مواجهة تحديات المتغيرات العالمية.

٣- لا يمكن أن تتجه كل جهود عقول شبابنا إلى الحوار مع الآخر في الوقت الذي يهملون فيه تمامًا -عن قصد وسوء توجيه- الحوار مع ذواتهم؛ لأن الأمانة تقتضي أن يكون الحوار أولا بيننا، ولكن إذا كان بعض شبابنا يرفض الحوار بدعوى الممانعة، وينزوي في محراب قداسة أيديولوجية فكره ومذهبه، ويطالب باستخدام أسوأ أشكال المصادرة والمطاردة مع كل فكر آخر يخالفه، فإنه يكون مخالفًا لمفهوم الممانعة الذي لا يعني التقوقع داخل الذات، بقدر ما يقتضي تحقيق الشاب المسلم لدوره الاستخلافي في الأرض بمواجهة التحديات، واعتماد فقه الموازنات والأولويات مراعاة لتوازن مصالح دينه ووطنه ومجتمعه وأمته العربية والإسلامية. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل / المغرب.

د. إبراهيم شوقار*

العدالة

ومظاهر الخلل في الحضارة المعاصرة

مقاربة في رسائل النور

إن العدالة حكمة إلهية، بها يتحقق مقتضى سنن الكون في الوجود لتجري نحو غايتها جميعُ الكائنات، وهي أيضًا قيمة الإنسانية، بها يسود منهج الحق ويتحقق مقتضى سنن الشرع في المجتمعات، وهي أيضًا غاية أصلية للشرائع السماوية التي جاءت قاطبة لتحقق العدالة في الأرض، لتكون البشرية بسائر أجناسها وأعراقها وثقافاتها، أمام ميزان العدل والإنصاف، إذ قال تعالى:﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥). فهذا الكون -كما يرى العلماء- يجري في توازن دقيق ووفق عدالة عامة نابعة من التجلي الأعظم لاسم الله "العدل"، وهي تدير موازنة عموم الأشياء وتأمر البشرية بإقامة العدل. وبمراعاة هذا الميزان الإلهي، سواء في جانبها الشرعي باتباع صراط الدين الذي بيّنه الرسل: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(النحل:٩٠) أو بالتمثل لسنن الحق

في نواميس الكون، قدمت البشرية كثيرًا من النماذج المشرقة للوحدة والتجانس والأمن والسلام، في ظل تباين ثقافي وديني وعرقي للمجتمعات، وتجاوزت بذلك كل الكوارث وويلات الحروب الطاحنة وما يرافقها من خراب ودمار.

ولكن لما كانت النفس البشرية مطبوعة على الطغيان -وهو إخلال بميزان العدل بكل معانيه- صارت هنالك جوانب مظلمة في تاريخ المجتمعات غطتها ركام من المظالم والمتناقضات. أما في هذا العصر، فيرى المرء أصنافًا شتى من الإخلال بميزان العدل في سائر أرجاء العالم، بل حتى البيئة والطبيعة تأثرتا بالنشاط الإنساني المخل بالتوازن. فعلى خلاف ما يرجوه أي ضمير إنساني، تقف البشرية اليوم على منعطف حاسم في وجه تقلبات الحركة التاريخية، حيث فقدت عنصر "التوازن" في سائر مظاهر حياتها. فالمجتمعات البشرية تعاني اليوم من قلة الطمأنينة باختلال التوازن بين متطلبات النفس والروح، وتعاني من خوف رهيب بسبب الحروب المدمرة وغيبة الأمن، الناتجة عن اختلال التوازن بين تطور المعارف والعمل بالقيم الروحية، وتعاني من قلة السلام الاجتماعي نظرًا لغياب العدالة الاجتماعية واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء.

وإلى جانب كل ذلك، تعاني الإنسانية اليوم من كوارث طبيعية مهلكة، بسبب اختلال التوازن البيئي بما كسبت أيدي الناس. فكل هذه إنما هي مظاهر للخلل في عناصر "العدل والتوازن" في الحياة، لأن الله تعالى بحكمته العجيبة، قد أوجد هذا الكون على توازن عجيب. وقد تنبأ بديع الزمان "سعيد النورسي" ببصيرته النافذة وفكره الثاقب، إلى كل هذه التناقضات وعبّر عنها بقوله: "سيكون زمان يُخفي الضدُّ ضدَّه، وإذا باللفظ ضد المعنى في لغة السياسة، وإذا بالظلم يلبس قلنسوة العدالة، وإذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمن زهيد، ويُطلق اسم البغي على الجهاد في سبيل الله ويسمّى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية".

هذا الوصف يبيّن درجة الانقلاب في القيم والانحراف في المعايير الأخلاقية، ويظهر بجلاء التطابق بين عناصر هذا الوصف والعصر الذي نعيش فيه، أي إن "الزمن" الذي أشار إليه النورسي قد جاء أوانه وحلّ وقته. إذن ما الحل؟ وما الوسائل المتاحة والبدائل المتوفرة لرفع هذه التناقضات بشتى صورها، وإعادة العدل والتوزان في المجتمعات البشرية وفي البيئة، لتهنأ الإنسانية بالسلم والأمن والرفاهية؟

الإجابة المبدئية لهذه التساؤلات في نظر النورسي، هي أن الإنسان قد صار متمردًا على نظام المشيئة الإلهية، سواء كان في جانبه الكوني أو الشرعي أو الجانبين معًا.

مفهوم العدالة في فكر النورسي

إن ما جاء به المرسلون من الشرائع وفق قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥) قسمان، قسم مطلق (ثابت)، وقسم نسبي (متغير) يراعي حاجة الإنسان الزمانية والمكانية فيتبدل وفق الأزمنة والعصور.

أما القسم الأول فلا يقبل التطور والتبدل مهما تعاقبت العصور، ويجب المحافظة عليه على الدوام لأنه يتعلق بغاية الإنسان في الوجود، وإنْ انحرف عنه الزمان فإنما هذا دليل على فساد الزمان لا على فساده. وهذا القسم الثابت هو أصل الدين والقيم. والقيم إما أن تتعلق بالجانب الشخصي للإنسان وهو الأخلاق، وإما أن تتعلق بالجانب الاجتماعي وهي العدالة: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. ووفق الأصفهاني، فإن العدالة والمعادلة في اللغة، ألفاظ تقتضي معنى المساواة، والعَدْلُ والعِدْلُ (بالفتح والكسر) يتقاربان في المعنى، ولكن يُستعمل الأول (العَدْلُ) فيما يُدْرَك بالبصيرة كالأحكام كما جاء في قوله تعالى:﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾(المائدة:٩٥). أما "العِدْلُ" و"العَدِيل" فيستخدمان فيما يُدْرَك بالحاسة، كالموزونات والمعدودات. فـ"العدالة" في الاستخدام القرآني، تأتي على ثلاثة أوجه على سبيل الإجمال:

١- العدالة بمعنى المساواة في التعامل: وينطبق هذا المعنى بالأساس على المعنويات، لذلك تتحقق صحته وفق المجال الذي تطبّق فيه العدالة كالمساواة أمام القانون، ولأن المساواة المطلقة في المعنويات قد لا تحقّق غاية العدالة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾(الأنعام:١)، أي يساوون الخالق بالمخلوق وهو عين الظلم والجور.

٢- العدالة بمعنى التوازن في الأشياء؛ أي التقسيط على سواء بانتفاء الخلل والعيب والنقصان. ويتجلى هذا المعنى بصورة أساسية في الماديات، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(الأحقاف:٣)، ويفسره قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾(الرحمن:٧-٨)، أي إن العدالة والتوازن المشهود في

إن ما جاء به المرسلون من الشرائع قسمان؛ مطلق (ثابت)، ونسبي (متغير) يراعي حاجة الإنسان الزمانية والمكانية فيتبدل وفق الأزمنة والعصور. أما المطلق فلا يقبل التطور والتبدل مهما تعاقبت العصور، ويجب المحافظة عليه على الدوام لأنه يتعلق بغاية الإنسان في الوجود، وإنْ انحرف عنه الزمان فإنما هذا دليل على فساد الزمان لا على فساده.

حركة الكون، يجب أن يكون دافعًا ومحفّزًا للإنسان على إقامة العدل في المجتمع البشري. وهو المعنى الذي قصده النورسي بقوله: "إن العدالة العامة الجارية في الكون، النابعة من التجلي الأعظم لاسم "العدل"، إنما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل". والعدالة بهذا المفهوم هي سنة إلهية في الكون، تتجلى من خلال القوانين التي تحكم حركة الموجودات في الحياة الطبيعية.

٣- العدالة بمعنى الجزاء بالمثل؛ أي الجمع بين المتماثلات والتفريق بين المختلفات، وهي صورة معنوية تتجلى من خلال الحكمة الإلهية المطلقة في تصريف شؤون الخلق، ولا سيما في المجتمع البشري، وهي ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(القلم:٣٥-٣٦). فالله تعالى من حكمته ورحمته، لا يساوي بين أهل الإيمان والكافرين به في الأحكام، ولا يساوي بين دعاة السلم والأمن وعُشاق الحرب والدمار في الجزاء، ولذلك قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾(الشورى:٤٠)، وقال: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾(الفتح:٢٢-٢٣). فسنة الله تعالى في الظواهر الاجتماعية والتاريخية، هي طريقة حكمته في الجمع بين الأمور المتماثلة والتفريق بين الأمور المختلفة، ولذلك فإن نصرة أهل الإيمان تابعة للإيمان، ومتى انحرف عنه المسلمون فلا نصرة لهم. وملخص هذا المعنى جاء في قوله تعالى: ﴿منِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الإسراء:١٥).

الذي ينعم النظر في رسائل النور، يجد أن هذه المعاني الثلاثة للعدالة منثورة في ثناياها، ولكن يستخدمها النورسي بمفهومين، عدالة بمفهوم "الشريعة الكونية" وأخرى بمفهوم "الشريعة الدينية"، أي ثمة عدالة كونية وأخرى شرعية.

العدالة الكونية

إن من أهم الخصائص المنهجية للخطاب النورسي، هي تأسيس القواعد المطردة ثم بناء الفروع عليها. ولذلك فهو يعمد إلى وضع الأسس الكلية لمفهوم "العدالة" التي يراها مقصدًا جوهريًا من مقاصد القرآن، من خلال ربطها بفكرة السنن الكونية التي يسيّر الله بها الوجود؛ إذ يرى النورسي أن التوازن الكوني رمز للعدالة الإلهية فيقول: "إن العدالة العامة الجارية في الكون، النابعة من التجلي الأعظم لاسم "العدل"، إنما تدير موازنة عموم الأشياء وتأمر البشرية بإقامة العدل". الأمر الصادر بإقامة العدل هنا ليس أمرًا "لفظيًا" في نظر النورسي، وإنما نظام "معنوي" يتجلى من خلال دقة الحركة الكونية، ولذلك فإن "هذا الكون قصْر بديع يضم مدينة واسعة تتداولها عوامل التخريب والتعمير، وفي تلك المدينة مملكة واسعة تغلي باستمرار من شدة مظاهر الحرب والهجرة، وبين جوانح تلك المملكة عالم عظيم يسبَح كل حين في خضم الموت والحياة. ولكن على الرغم من كل مظاهر الاضطراب، فإن موازنةً عامة وميزانًا حساسًا، وعملية وزنٍ دقيق تسيطر في كل جوانب القصر ونواحي المدينة، وتسود في كل أرجاء المملكة وأطراف العالم، وتهيمن عليها هيمنة، بحيث تدل بداهة أن

ما يحدث ضمن هذه الموجودات التي لا يحصرها العدّ من تحولات، وما يلجُ فيها وما يخرج منها، لا يمكن أن يكون إلاّ بعملية وزنٍ وكَيْلٍ، وميزان مَن يرى أنحاء الوجود كلها في آن واحد، ومن تجري الموجوداتُ جميعُها أمامَ نظر مراقبته في كل حين، ذلكم الواحد الأحد سبحانه".

أما معنى العدالة الكونية فهي العدالة الإلهية المحضة التي تجمع بين المعنيين؛ الثاني والثالث، أعني التوازن والجزاء بالمثل. وهي بذلك تعتبر سنة إلهية، من أهم خصائصها الإطلاق والعموم والشمول. ويعرض النورسي تجليات ومظاهر هذا النوع من العدالة بقوله: "وترى العدالة المطلقة تضع كل عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة، ابتداءًا من ميكروب صغير إلى كركدن ضخم، ومن نحل ضعيف إلى نسر مهيب، ومن زهرة لطيفة إلى ربيع زاهٍ بملايين من الأزهار، وتراها تمنح كل عضو تناسقًا لا عبث فيه، وموازنة لا نقص فيها، وانتظامًا لا ترى فيه إلا الإبداع. كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر، حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال، فضلًا عن أنها تهب لكل ذي حياة حق الحياة فتيسر له سبل الحياة، وتنصب له موازين عدالة فائقة، فجزاء الحسنة حسنة مثلها، وجزاء السيئة سيئة مثلها".

هذا النص يبيّن أن العدالة الكونية تتجلى من خلال صورتين الأولى بصورة "نظام" في حركة الموجودات، والثانية بصورة "جزاء" لأفعال العباد الاختيارية وهو لا يتحقق كاملة إلا في الآخرة. والفرق بين النوعين ليس في الخصائص وإنما في مجال العمل، لذلك يقول النورسي: "نعم، إن العدالة شقان أحدهما إيجابي والآخر سلبي؛ أما الإيجابي فهو إعطاء كل ذي حق حقه. فهذا القسم من العدالة محيط وشامل لكل ما في هذه الدنيا لدرجة البداهة. فكما أثبتنا في الحقيقة الثالثة، بأن ما يطلبه كل شيء وما هو ضروري لوجوده وإدامة حياته التي يطلبها بلسان استعداده وبلغة حاجاته الفطرية وبلسان اضطراره من الفاطر ذي الجلال، يأتيه بميزان خاص دقيق وبمعايير ومقاييس معينة، أي إن هذا القسم من العدالة ظاهر ظهور الوجود والحياة. أما القسم السلبي فهو تأديب غير المحقين، أي إحقاق الحق بإنزال الجزاء والعذاب عليهم. فهذا القسم وإن كان لا يظهر بجلاء في هذه الدنيا، إلا أن هنالك إشارات وأمارات تدل على هذه الحقيقة. خذ مثلًا سوطَ العذاب وصفعات التأديب التي نزلت بقوم عاد وثمود، بل بالأقوام المتمردة في عصرنا هذا، مما يظهر للحدس القطعي هيمنة العدالة السامية وسيادتها".

إن العدالة حكمة إلهية، بها يتحقق مقتضى سنن الكون في الوجود لتجري نحو غايتها جميعُ الكائنات، وهي قيمة الإنسانية، بها يسود منهج الحق ويتحقق مقتضى سنن الشرع في المجتمعات، وهي غاية أصلية للشرائع السماوية التي جاءت قاطبة لتحقق العدالة في الأرض، لتكون البشرية بسائر أجناسها وأعراقها وثقافاتها، أمام ميزان العدل والإنصاف.

إن عاقبة تمرد الإنسان بتصرفاته غير الحكيمة على العدالة الإلهية المتمثلة في "التوازن الكوني"، هي الكوارث البيئية وأضرارها البالغة التي تعم البشرية كما هو ظاهر في هذا العصر. أما الجزاء العادل بحق هذه التصرفات المعوجة نفسها "القسم السلبي"، فيتجلى كاملًا في يوم الجمع الأكبر، وإن كانت صفعات التأديب قد تنزل في هذه الدنيا. وهذا يعني أن جزاء انتهاك السنن الكونية عاجل، أما السنن الشرعية فبرحمة الله ﷻ يستوفى جزاؤها في الآخرة. فالعدالة الكونية في رسائل النور، إما عدالة "نظام" في الموجودات، أو عدالة "جزاء" للعباد، وهذه الأخيرة ينبثق منها مفهوم العدالة الشرعية التي جاء بها المرسلون.

العدالة الشرعية

إن العدالة الشرعية هي التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥)، وهي ترتبط بالعدالة الكونية من حيث أصولها السماوية المتمثلة في شرائع الدين وتختص بالمجتمع البشري، لذلك أسند أمر تنفيذها بخلاف العدالة الكونية إلى الإنسان: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥).

تأتي العدالة الشرعية بالمفهوم الأول للعدالة -أعني المساواة في التعامل- وهي عدالة نسبية تجمع بين العدالة القانونية والاجتماعية، أي تحري الحق بحسب القدرة

البشرية، لتحقيق العدل بين الناس وفق أوامر الشرع وإعطاء كل ذي حق حقه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(النحل:٩٠)، وقال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾(البقرة:١٩٤)، وهذا هو العدل، أي المساواة في التعامل؛ إنْ خيرًا فخير وإن شرًا فشر. ولكن القرآن يعلمنا أن العفو هو الأفضل: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٤)، والإحسان أن يُقابل الخير بأكثر منه والشر بأقل منه.

فالعدالة الشرعية هي الاعتدال على صراط الحق وتحري الوسط من الأمور بين طرفي الإفراط والتفريط: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:٨). فالعدالة بهذا المعنى سبب للطمأنينة وراحة البال، لأن الذي يعدل بين الناس، يكسب ودهم ويأمن غدرهم، فيعم الأمن والسلام والتعاون بين الناس فيكثر الإنتاج وتعم الخيرات.

إن فلسفة العدالة الشرعية عند النورسي قائمة على هذه "الوسطية"، وهي خلاصة لكل الخصال الحميدة في الإنسان؛ الحكمة والعفة والشجاعة، وهي أوساطٌ للمراتب الثلاث لقوى الإنسان: القوة الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع، والقوة الغضبية السَبُعية الدافعة للمضرات والمخرّبات، والقوة العقلية الملكية المميزة بين النفع والضر. وحقيقة ذلك هي أن الله تعالى بحكمته المقتضية لتَكمُّل البشر بسر المسابقة، لم يحدِّد بالفطرة تلك القوى كما حدد قوى سائر الحيوانات، وإن حدَّدها بالشريعة لأنها تنهى عن الإفراط والتفريط وتأمر بالوسط. وبعدم التحديد الفطري يحصل مراتب ثلاث: مرتبة النقصان وهي التفريط، والزيادة وهي الإفراط، والوسط وهي العدل.

والعدالة الشرعية عند النورسي يمكن النظر إليها من جانبين: عدالة حقيقية (محضة) وأخرى نسبية (إضافية). أما العدالة المحضة فهي الأخذ بالعزائم الشرعية في تحري الحق، مثل تلك التي تقرر ألا يهدر دم بريء، ولا تزهق روحه حتى لو كان في ذلك حياة البشرية جمعاء، لأن الكل والجزء في نظر العدالة سواء. أما العدالة الإضافية فهي الأخذ بالرخص الشرعية في تحري الحق، مثل التضحية بأحد الجنود لإنقاذ الجيش بأسره من الهلاك. والفرق الجوهري بينهما هو أن العدالة النسبية يمكن إساءة استخدامها من قبل المفسدين بذرائع مختلفة.

إن هذا المفهوم للعدالة عند النورسي يبيّن علو مقام الإنسان بين الكائنات، إذ "لم يحدِّد الله تعالى بالفطرة تلك القوى كما حدد قوى سائر الحيوانات". ويقوّض الأسس الفلسفية لفكرة "العدالة" في الحضارة المعاصرة، من حيث إن العدالة المطلقة في السماء هي الأساس والقاعدة للعدالة في الأرض عند النورسي، لأن "ملكة تعديل الأخلاق الموهومة -في الفكر الوضعي- لا تكفي للمحافظة على القوى الثلاثة في الحكمة والعفة والشجاعة. لذا فالإنسان بالضرورة محتاج إلى نبي يمسك بميزان العدالة الإلهية النافذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع".

تُفهَم العدالة في رسائل النور بهذين الاعتبارين، أي المفهوم الكوني والشرعي للعدالة، حيث إن الإنسان مأمور -بالفطرة والشرع- بإقامة العدل في المجتمع. ومن هنا تظهر أهمية الدعوة لجعل سنة العدالة الإلهية أساسًا ومنبرًا لإيجاد تراث بشري مشترك، لأن من الناس من لا يؤمن ببعض الشرائع ولكنه ملزم بإقامة العدل وفق الشريعة الكونية. وهذا يعكس مدى بعد النظر الذي يتمتع به مؤلف رسائل النور. وغرس هذا المفهوم "للعدالة" في النفوس لا يحفظ التوزان الاجتماعي والبيئي فحسب، وإنما يمنع الظلم والتطرف الفكري أيضًا. ■

(*) أستاذ مساعد بكلية العلوم، الجامعة الإسلامية العالمية / ماليزيا.

المصادر

(١) اللمعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٢) الشعاعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٣) الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٤) إشارات الإعجاز، لبديع الزمان سعيد النورسي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٥) الملاحق، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٦) صيقل الإسلام، لبديع الزمان سعيد النورسي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٧) الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، دار الفكر، بيروت.
(٨) المفردات في غريب القرآن، لراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت.
(٩) مجموع الفتاوي، لأحمد بن عبد الحليم، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، المملكة العربية السعودية.

أ.د. زغلول النجار*

رفع السماء بغير عمد

تشير الدراسات الكونية إلى وجود قوى مستترة في اللبنات الأولية للمادة، وفي كل من الذرات والجزيئات، وفي كافة أجرام السماء، تحكم بناء الكون وتمسك بأطرافه إلى أن يشاء الله تعالى فيدمره ويعيد خلق غيره من جديد.

ومن القوى التي تَعرَّف عليها العلماء في كل من الأرض والسماء، أربع صور يعتقد بأنها أوجه متعددة لقوة عظمى واحدة، تسري في مختلف جنبات الكون لتربطه برباط وثيق وإلا لانفرط عقده. وهذه القوى هي كالتالي:

١- القوة النووية الشديدة:

وهي القوة التي تقوم بربط الجزيئات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة برباط متين من مثل البروتونات، والنيوترونات ولبناتهما الأولية المسماة بال"كواركات" (Quarks) بأنواعها المختلفة وأضدادها (Anti-Quarks)، كما تقوم بدمج والتحام نوى الذرات مع بعضها البعض في عمليات الاندماج النووي (Nuclearfusion) التي تتم في داخل النجوم كما تتم في العديد من التجارب المختبرية. وهي أشد أنواع القوى الطبيعية المعروفة لنا في الجزء المدرك من الكون، ولذا تُعرَف باسم "القوة الشديدة". ولكن هذه الشدة البالغة في داخل نواة الذرة، تتضاءل عبر المسافات الأكبر، ولذلك يكاد دورها يكون محصورًا في داخل نوى الذرات وبين تلك النوى ومثيلاتها. وهذه القوى تُحمَل على جُسَيْمات غير مرئية تسمى بـ"اللاحمة" أو "جليون" (Gluon) لم تُكتشف إلا في أواخر السبعينيات من القرن العشرين. وفكرة القنبلة النووية قائمة على إطلاق هذه القوة التي تربط بين لبنات نواة الذرة. كما أن هذه القوة لازمة لبناء الكون، لأنها لو انعدمت لعاد الكون إلى حالته الأولى -لحظة الانفجار العظيم- حين تحوّل الجِرم الابتدائي الأولي الذي نشأ عن انفجاره كلُّ الكون، إلى سحابة من اللبنات الأولية للمادة التي لا يربطها رابط، ومن ثم لا يمكنها بناء أي من أجرام السماء.

٢- القوة النووية الضعيفة:

وهي قوة ضعيفة وذات مدى ضعيف للغاية، لا يتعدى حدود الذرة. وتساوي ١٠-١٣ من شدة القوة النووية الشديدة، وتقوم بتنظيم عملية تفكّك وتحلل بعض الجسيمات الأولية للمادة في داخل الذرة، كما يحدث في تحلل العناصر المشعة، وعلى ذلك فهي تتحكم في عملية فناء العناصر، حيث إن لكل عنصر أجلًا مسمى. وتُحمَل هذه القوة على جسيمات إما سالبة أو عديمة الشحنة تسمى "البوزونات" (Bosons).

٣- القوة الكهربائية المغناطيسية:

وهي القوة التي تربط الذرات بعضها ببعض في داخل جزيئات المادة، مما يعطي للمواد المختلفة صفاتها الطبيعية والكيميائية. ولولا هذه القوة لكان الكون مليئًا بذرات العناصر فقط، ولمَا كانت هناك جزيئات أو مركبات، ومن ثم ما كانت هناك حياة على الإطلاق.

وهذه القوة هي التي تؤدي إلى حدوث الإشعاع الكهرومغناطيسي على هيئة فوتونات الضوء أو ما يعرف بـ"الكم الضوئي" (Photon Photon Quantum). وتنطلق الفوتونات بسرعة الضوء لتؤثر في جميع الجسيمات التي تحمل شحنات كهربائية، ومن ثم فهي تؤثر في جميع التفاعلات الكيميائية وفي العديد من العمليات الفيزيائية، وتبلغ قوتها ١/١٣٧ من القوة النووية الشديدة.

٤- قوة الجاذبية:

وهي على المدى القصير، تعتبر أضعف القوى المعروفة لنا، وتساوي ١٠-٣٩ من القوة النووية الشديدة. ولكن على المدى الطويل تصبح القوة العظمى في الكون نظرًا لطبيعتها التراكمية، فتمسك بكافة أجرام السماء، وبمختلف تجمعاتها. ولولا هذا الرباط الحاكم الذي أودعه الله ﷻ في الأرض وفي أجرام السماء، ما كانت الأرض ولا كانت السماء، ولو زال هذا الرباط لانفرط عقد الكون وانهارت مكوناته.

ولا يزال أهل العلم يبحثون عن موجات الجاذبية المنتشرة في أرجاء الكون كله، منطلقة بسرعة الضوء دون أن تُرى. ويُفترض وجود هذه القوة على هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعدُ، يطلق عليها اسم "الجسيم الجاذب" أو "الجرافيتون" (Graviton). وعلى ذلك فإن الجاذبية هي أربطة الكون. والجاذبية مرتبطة بكتل الأجرام وبمواقعها بالنسبة لبعضها البعض. فكلما تقاربت أجرام السماء وزادت كتلها، زادت قوى الجذب بينها، والعكس صحيح. ولذلك يبدو أثر الجاذبية أوضح ما يكون بين أجرام السماء، التي يمسك الأكبر فيها بالأصغر بواسطة قوى الجاذبية. ومع دوران الأجرام حول نفسها، تنشأ القوة الطاردة (النابذة) المركزية التي تدفع بالأجرام الصغيرة بعيدًا عن الأجرام الأكبر التي تجذبها حتى تتساوى القوتان المتضادتان: قوة الجذب إلى الداخل، وقوة الطرد إلى الخارج. فتتحدّد بذلك مدارات كافة أجرام السماء التي يسبح فيها كل جرم سماوي دون أدنى تعارض أو اصطدام.

هذه القوى الأربع، هي الدعائم الخفية التي يقوم عليها بناء السماوات والأرض، وقد أدركها العلماء من خلال آثارها الظاهرة والخفية في كل أشياء الكون المدركة.

توحيد القوى المعروفة في الكون المدرك

كما تم توحيد قوتَي الكهرباء والمغناطيسية في شكل قوة واحدة هي القوة الكهرومغناطيسية، يحاول العلماء جمع تلك القوة مع القوة النووية الضعيفة باسم "القوة الكهربائية الضعيفة" (The Electroweak Force)، حيث لا يمكن فصل هاتين القوتين في درجات الحرارة العليا التي بدأ بها الكون. كذلك يحاول العلماء جمع القوة الكهربائية الضعيفة والقوة النووية الشديدة في قوة واحدة، وذلك في عدد من النظريات التي تعرف باسم "نظريات المجال الواحد" أو "النظريات الموحدة الكبرى" (The Grand Unified Theory)، ثم جمع كل ذلك مع قوة الجاذبية فيما يسمى باسم "الجاذبية العظمى" (Supergravity) التي يعتقد العلماء، بأنها كانت القوة الوحيدة السائدة في درجات الحرارة العليا عند بدء خلق الكون، ثم تمايزت إلى القوى الأربع المعروفة لنا اليوم، والتي ينظر إليها

على أنها أوجه أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة التي تشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. فالكون يبدو كنسيج شديد التلاحم والترابط، ورباطه هذه القوة العظمى الواحدة التي تنتشر في كافة أرجائه، وفي جميع مكوناته وأجزائه وجزيئاته. وهذه القوة الواحدة تظهر لنا في هيئة العديد من صور الطاقة. والطاقة هي الوحدة الأساسية في الكون، والمادة مظهر من مظاهرها، وهي من غير الطاقة لا وجود لها. فالكون عبارة عن المادة والطاقة ينتشران في كل من المكان والزمان، بنسب وتركيزات متفاوتة، فينتج عنها ذلك النسيج المحكم المحبوك في كل جزئية من جزئياته.

الجاذبية العامة

من الثوابت العلمية، أن الجاذبية العامة هي سنة من سنن الله ﷻ في الكون، أودعها ربنا تبارك وتعالى كافةَ أجزاء الكون، ليربط تلك الأجزاء بها. وينص قانون هذه السنة الكونية، بأن قوة التجاذب بين أي كتلتين في الوجود، تتناسب تناسبًا طرديًا مع حاصل ضرب كتلتيهما، وعكسيًا مع مربع المسافة الفاصلة بينهما. ومعنى ذلك أن قوة الجاذبية تزداد بازدياد كلٍّ من الكتلتين المتجاذبتين، وتنقص بنقصهما، بينما تزداد هذه القوة بنقص المسافة الفاصلة بين الكتلتين، وتتناقص بتزايدها. ولما كان لأغلب أجرام السماء كتل مذهلة في ضخامتها، فإن الجاذبية العامة هي الرباط الحقيقي لتلك الكتل، على الرغم من ضخامة المسافات الفاصلة بينها. وهذه القوة الخفية (غير المرئية) تمثل النسيج الحقيقي الذي يربط كافة أجزاء الكون، كما هو الحال بين الأرض والسماء، وهي القوة الرافعة للسماوات بإذن الله بغير عمد مرئية.

وهي نفس القوة التي تحكم تكوُّر الأرض، وتكوُّر كافة أجرام السماء، وتكوُّر الكون كله، كما تحكم عملية تخلّق النجوم بتكدس أجزاءٍ من الدخان الكوني على بعضها البعض، بكتلات محسوبة بدقة فائقة، وتخلّق كافة أجرام السماء الأخرى، كما تحكم دوران الأجرام السماوية كلٌّ حول محوره، وتحكم جَرْيَهُ في مداره، بل في أكثر من مدار واحد

إن الجاذبية العامة هي الرباط الحقيقي لتلك الكتل. وهذه القوة الخفية (غير المرئية) تمثل النسيج الحقيقي الذي يربط كافة أجزاء الكون، كما هو الحال بين الأرض والسماء، وهي القوة الرافعة للسماوات بإذن الله بغير عمد مرئية.

له. وهذه المدارات العديدة، لا تصطدم فيها أجرام السماء رغم تداخلاتها وتعارضاتها الكثيرة، ويبقى الجِرم السماوي في مداره المحدد، بتعادل دقيق بين كلٍّ من قوى الجذب إلى الداخل بفعل الجاذبية، وبين قوى الطرد إلى الخارج بفعل القوة الطاردة (النابذة) المركزية.

وقوة الجاذبية العامة تعمل على تحدّب الكون أي تكوّره، وتُجبِر كافة صور المادة والطاقة على التحرك في السماء في خطوط منحنية (العروج)، وتمسك بالأغلفة الغازية والمائية والحياتية للأرض، وتحدد سرعة الإفلات من سطحها. وبتحديد تلك السرعة، يمكن إطلاق كل من الصواريخ والأقمار الصناعية.

الجاذبية الكمية

تُجمِع كافة القوانين المتعلقة بالجاذبية، مع الأخذ في الحسبان جميع التأثيرات الكمية على اعتبار أن إحداثيات الكون تتبع نموذجًا مشابهًا للإحداثيات الأرضية، وأن أبعاد الكون تتبع نموذجًا مشابهًا للأرض بأبعادها الثلاثة، بالإضافة إلى كلٍّ من الزمان والمكان كبُعد رابع. وعلى الرغم من كونها القوة السائدة في الكون -بإذن الله- فإنها لا تزال سرا من أسرار الكون. وكل النظريات التي وُضعت من أجل تفسيرها، قد وقفت دون ذلك، لعجزها عن تفسير كيفية نشأة هذه القوة وكيفية عملها، وإن كانت هناك فروض تنادي بأن جاذبية الأرض ناتجة عن دورانها حول محورها، وأن مجالها المغناطيسي ناتج عن دوران لب الأرض السائل، والذي يتكون -أساسًا- من الحديد والنيكل المنصهرين حول لبها الصلب، والذي له نفس التركيب الكيميائي تقريبًا، وكذلك الحال بالنسبة لبقية أجرام السماء.

موجات الجاذبية

منذ العقدين الأولين من القرن العشرين، تنادي العلماء بوجود

موجات للجاذبية من الإشعاع التجاذبي تسري في كافة أجزاء الكـون؛ وذلـك على أسـاس أنه بتحرك جسـيمات مشـحونة بالكهرباء مثل الإليكترونات والبروتونات الموجودة في ذرات العناصر والمركبات، فإن هذه الجسيمات تكون مصحوبة في حركتها بإشـعاعات من الموجات الكهرومغناطيسـية. وقياسًا على ذلك فإن الجسيمات غير المشحونة -مثل النيوترونات- تكون مصحوبة في حركتها بموجات الجاذبية. ويعكف علماء الفيزيـاء اليوم على محاولة قياس تلك الأمواج، والبحث عن حاملها من جسـيمات أولية في بناء المادة يحتمل وجوده في داخل ذرات العناصر والمركبات، واقترحوا له اسم "الجاذب" أو "الجرافيتون"، وتوقعوا أنه يتحرك بسـرعة الضوء. وانطلاقًا من ذلك، تصوروا أن موجات الجاذبية تسبح في الكون، لتربط كافـة أجزائه بربـاط وثيق من نواة الذرة إلـى المجرة العظمى وتجمعاتهـا إلى كل الكون، وأن هذه الموجات التجاذبية هي مـن السـنن الأولـى التي أودعهـا الله تعالى مـادة الكون وكل المكان والزمان.

وهنـا يجب التفرقة بين قـوة الجاذبية، وموجات الجاذبية، فبينمـا الأولـى تمثّل قوة الجـذب للمادة الداخلـة في تركيب جسم ما حين تتبادل الجذب مع جسم آخر، فإن الثانية هي أثرٌ لقوة الجاذبية. وقد أشـارت نظرية النسـبية العامة إلى موجات الجاذبيـة الكونيـة، على أنهـا رابط بين المـكان والزمان على هيئـة موجات تؤثر فـي حقول الجاذبية في الكـون، كما تؤثر علـى الأجرام السـماوية التـي تقابلها. وقـد بُذلت محاولات كثيـرة لاستكشـاف موجـات الجاذبية القادمة إلينـا من خارج مجموعتنا الشمسية، ولكنها لم تكلل بعد بالنجاح.

والجاذبيـة وموجاتها التي قامت بها السـماوات والأرض منذ بدء خلقهما، سـتكون سـببًا في هدم هذا البناء عندما يأذن الله ﷻ بتوقف عملية توسـع الكون، فتبـدأ الجاذبية وموجاتها فـي العمل علـى انكماش الكون، وإعادة جمـع كافة مكوناته علـى هيئـة جـرم واحد شـبيه بالجـرم الابتدائي الـذي بدأ به خلـق الكـون، وسـبحان القائل: ﴿يَـوْمَ نَطْـوِي السَّـمَاءَ كَطَيِّ السِّـجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَـا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْـدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:١٠٤).

نظرية الخيوط العظمى وتماسك الكون

فـي محاولـةٍ لجمـع القـوى الأربـع المعروفـة فـي الكـون (القـوة النوويـة الشـديدة، والقـوة النوويـة الضعيفـة، والقوة الكهرومغناطيسـية، وقـوة الجاذبية) في صـورة واحدة للقوة، اقترح علماء الفيزياء ما يعرف باسم "نظرية الخيوط العظمى" (The Theory Of Superstrings)، والتـي تفتـرض أن الوحـدات البانية للبنات الأولية للمادة من مثل الكواركات والفوتونات، والإليكترونـات وغيرهـا، تتكون من خيـوط طولية في حدود ١٠-٣٥ مـن المتـر، تلتـف حـول ذواتهـا على هيئـة الزنبرك المتناهـي فـي ضآلـة الحجـم، فتبدو كما لـو كانـت نقاطًا أو جسـيمات وهـي ليسـت كذلـك. وتفيـد النظرية فـي التغلب على الصعوبات التي تواجهها الدراسـات النظرية في التعامل مـع مثل تلك الأبعاد شـديدة التضاؤل، حيـث تتضح الحاجة إلـى فيزيـاء كمية غيـر موجودة حاليًـا. ويمكـن تمثيل حركة الجسـيمات في هذه الحالـة بموجات تتحـرك بطول الخيط، كذلـك يمكن تمثيل انشـطار تلك الجسـيمات واندماجها مع بعضها البعض، بانقسام تلك الخيوط والتحامها.

وتقتـرح النظريـة وجودَ مادة خفيـة، يمكنها أن تتعامل مع المـادة العاديـة عبر الجاذبية، لتجعل من كل شـيء في الكون مـن نواة الذرة إلى المجرة العظمـى وتجمعاتها المختلفة إلى كل السماء.. بناء شديد الإحكام قوي الترابط. وقد تكون هذه المادة الخفية هي ما يسمى بـ"المادة الداكنة"، والتي يمكن أن تعوض الكتل الناقصة في حسابات الجزء المدرك من الكون، وقد تكون من القوى الرابطة له.

وتفسـر النظريـة جميـع العلاقـات المعروفة بيـن اللبنات الأوليـة للمادة، وبين كافة القوى المعروفة في الجزء المدرك من الكون. وتفترض النظرية أن اللبنات الأولية للمادة، ما هي إلا طـرق مختلفة لتذبذب تلك الخيوط العظمى في كون ذي أحد عشـر بُعدًا. ومن ثم إذا كانت النظرية النسبية قد تحدثت عن كون منحنٍ، أي منحنية فيه الأبعاد المكانية الثلاثة (الطول، العرض، الارتفاع) في بعد رابع هو الزمن، فإن نظرية الخيوط العظمى تتعامل مع كون ذي أحد عشر بُعدًا، ومنها سبعة أبعاد مطويـة علـى هيئة لفائف الخيوط العظمى لـم يتمكن العلماء بعدُ من إدراكها، فسـبحان القائل: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّـمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(الرعد:٢). الله ﷻ قد أنزل هذه الحقيقة الكونية على خاتم أنبيائه ورسـله صلوات الله عليهم أجمعين من قبل أربعة عشـر قرنًا، ولا يمكن لعاقل أن ينسـبها إلى مصدر غير الله الخالق ﷻ. ■

(*) أسـتاذ علـوم الأرض ورئيـس لجنـة الإعجـاز العلمي بالمجلـس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.

د. رشيد كهوس*

لمسة الإيمان والتآخي

في العمارة الإسلامية

قال رسول الله ﷺ: مثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثَل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى" (رواه مسلم).

إن الرابطة القلبية الإيمانية بين المسلمين، هي من أهم خصائص العمران الأخوي، وبدون هذه الرابطة القلبية يبقى الحديث عن العمران الأخوي حديثًا غير ذي معنى، وكلمة تلوكها الألسن الغافلة.

الرابطة القلبية المقصودة، تلك المشار إليها في قوله تعالى في حق الأنصار ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ

تَبَـوَّأُوا الـدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَـنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَـوْ كَانَ بِهِـمْ خَصَاصَـةٌ وَمَـنْ يُوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولَئِـكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر:٩).

ولـو قـال: "تبوؤُا الـدار" فقط، لكانوا كباقـي المجتمعات التي تحكمها روابط مصلحية دنيوية محضة سـرعان ما تتبخر وتذهـب أدراج الريـاح، لكن قال: ﴿تَبَوَّأُوا الـدَّارَ وَالْأِيمَانَ﴾، فهـو تبـوء ثنائـي: تبوأوا الـدار، وتبـوأوا الإيمـان. هكذا كان الأنصار ﷺ؛ وقوا شـح أنفسـهم وخرجوا من دهاليز نفوسهم المجبولـة على الشـح، إلى فضـاء عبوديـة الله تعالى ومحبته، فنصـروا النبي ﷺ وإخوانهم المهاجرين ﷺ، وآووهم وأنفقوا عليهـم وأحبوهم... هذه هي الأخوة الصادقة الحقة التي أثنى عليها الله ﷻ، ودعانا إليها لبلوغ المرام.

التوازن الفريد بين الثنائيات

لقـد جمع هذا العمران الأخوي بيـن الدنيا والآخرة، والثبات والتطـور، والأرض والسـماء، والفرديـة والجماعـة، والعدل والإحسـان، والوحي والوجود، وعالم الغيب وعالم الشهادة، والقدر والاختيار، والروح والمادة، والتربية والجهاد، والإيمان والعقـل، وبين الظاهـر والباطن، والدعـوة والدولة، والوحدة والتنوع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجـرات:١٣)، فهـي جماعات وشـعوب، لكن يجمعها ويوحدها الإسلام. هذا إضافة إلى الشمولية التي تميز بها هذا العمران، على عكس الحضارة الغربية والحضارات السابقة.

فالعمـران الأخـوي، عمـران شـمولي وواقعي وإنسـاني وعالمي، يحمل رسالة الإسلام لينشرها في العالمين، لا يفرّق بيـن أسـود وأبيض، ولا بيـن عجمي وعربي، ولا بين السـيد والعبـد، ولا بيـن المرأة والرجـل... الكل سواسـية، وصدره مفتـوح لـكل مـن أراد الانضواء تحـت لواء الإسـلام أيًّا كان موقعه فـي الزمن والمكان. ومن خصائص العمران الأخوي، كونه إيجابيًا يبني ولا يهدم، يصلح ولا يفسـد، يسعى لتحقيق الخلافـة الكاملة في الأرض، وتطهير الأرض من كل ما يصد عن الله ﷻ. عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنْ قامت الساعة وبيَد أحدكم فسيلةٌ فإنْ استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فلْيفعل" (رواه أحمد).

الأصالة والتجديد

العمـران الأخـوي يجمع بيـن الأصالة والتجديـد، قادر على الاجتهاد على نور الإسلام، قادر على حماية ذاته من التفكك والانحـلال، قـادر علـى وضـع كل القيـم والخبـرات لـدى الحضارات الأخرى في محك الإسلام، للاستفادة من سليمها الموافق لمبادئ الإسـلام، والرمي بالباقي في مخازن الأفكار الضالـة. يقول الدكتور عمـاد الدين خليل: "إنه منذ اللحظات الأولى، أخذ الإسـلام علـى عاتقه مهمة تكوين جماعة مؤمنة "متحضرة"، تعرف كيف تحقق التقابل الفعال بين أصالة الذات العقائدية وبين الانفتاح على معطيات الأمم والشـعوب. (...) وفي فترة قصيرة تمكّن الإسـلام من أن يحوّل العرب إلى أمة "متحضرة"، خرجت إلى أطراف الأرض تحمل علمها الجديد ورؤيتها المتوحدة، لكي ترسم للعالمين مصيرًا جديدًا".

إنـه عمـران أخوي أصيل، قادر على مواكبة المسـتجدات والاستجابة للتحديات، متوازن وشامل وجامع وواقعي وبنّاء، يسعى لإخراج الناس من ظلام الأوثان إلى نور الإيمان، ومن عبـادة الخلْـق إلى عبادة الخالق، ومن ظلـم الأديان إلى عدل الإسـلام، ولو لـم يكن للإسـلام إلا هذه المزية لكفـاه فخرًا وشرفًا. تلك إذن هي شرائط إحلال العمران الأخوي وبدايته. ومـا دمنـا قد تحدثنا عن الطريق إلى العمـران، فإنَّا نتم كلامنا في الحديث عن دعائمه وأعمدته.

دعائم العمران الأخوي

١- العقيدة الصحيحة: عقيدة المؤمن هي وطنه، وهي قومه، وهـي أهلـه، وهي كل شـيء، وعليها يجتمع البشـر. إنها أهم دعامة للعمران الأخوي؛ العقيدة السـليمة المستمدة من وحي السـماء. وبهـذا يتجاوز كافـة الحضارات الغارقـة في أوحال الماديات، والتي لا ترى إلا ما تحت قدميها. إن هذا العمران يعبر عن ذلك اللقاء بين السماء والأرض، بين الدنيا والآخرة، بين الدين والسياسة... وعلى ضوء ذلك يخطط لعمله وفق ما تحدده العقيدة في دائرتها لا خارجها.

وإن أهـم مـا تميز به هـذا العمران، أنه قام بـكل ما قام به مـن عمارة الأرض، وهو يسـتظل بظل العقيدة الصحيحة، بل ينطلق من منطلقها ويحقق مقتضياتها.

فمنـذ لحظـات الفجـر الأولـى، كانـت العقيـدة بالنسـبة للإنسـان المسلم والجماعة المسـلمة، بمثابة الدافع والهدف، فهي تحركهم من الداخل بعطائها الدائم ومطالبها المسـتمرة،

وهي تناديهم من الخارج ليتحركوا إلى الأهداف الكبيرة، التي جاء بها هذا الدين لكي يجعل العالم يتحقق بها فيكون عالمًا جديرًا بالإنسان الذي كرمه الله ﷻ.

فالأساس الأول لهذا العمران هو التوحيد الذي جاء به الإسلام ليعيد إليه صفاءه الأول، وليأخذ بيد الناس إلى ربهم، وليخرجهم من ظلمات الشركيات وكهوف العقائد المنحرفة الضالة، إلى نور التوحيد والعقيدة السليمة، ليعبد الناس ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم ولا يجعلوا معه أندادًا، يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(الإخلاص:١-٤). إنها أروع صورة للعقيدة الإسلامية الصحيحة التي بها اهتدى الناس إلى سبيل الرشاد، وبها تبوأوا المكانة الرفيعة في العالم. إنها الطاقة الخالدة لانطلاق العمران.

فإنه ما من خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل وكرّمته، ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة؛ تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى التوحيد، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الأحجار والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون.

إن العقيدة روح العمران، وما أصاب الأمة الإسلامية اليوم من تخلف وصَغَار، ومن نكبة قاصمة لظهرها، وتتابُع الخطوب عليها، يرجع كل ذلك إلى غيبة تلك الروح من جسد الأمة، فتضعضع ذلك الكيان، وأصبحت الأمة خائرة جامدة متوعكة مريضة. إن الإرادة القوية التي تهدف إلى البناء، هي التي خارت وضعفت بسبب الداء العضال الذي أصابها "داء الأمم" الذي أكل أحشاء الأمة ونخر كيانها.

لقد كان مؤرخنا الكبير ابن خلدون -رحمه الله- حكيمًا لما جعل الشؤون السياسية، والاقتصادية، والعلم في دولة مسلمة تبعًا للشأن الديني وجعل العقيدة الحقيقة الأولى لهذا الدين الحنيف. ففي ضوئها درس ما حلّ بالدولة من مصائب وفساد، وركود العمران، وانتقاص الصنائع واختلال طرائق العلم، وتلاشي ملكات العلوم وغير ذلك... فوجد أن كل هذه الأدواء والأمراض، راجعة إلى اختلال العقيدة دعامةِ العمران البشري والدولة القائمة.

السبب الرئيس الذي جعل الأمة تصل إلى حضيض التخلف والتأخر عن الركب، هو "داء الأمم"، فعندما فرغت أفئدة أبنائها من المحبة لله ولرسوله والمؤمنين، أصبحت تلك القلوب تصفر فيها رياح الشحناء والحقد والبغضاء. ولن تقوم لنا قائمة حتى نرجع إلى المنهاج النبوي، لنغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

فبمحبة الله ورسوله شفيت الأمة في بداية أمرها، وبه تشفى في وسط أمرها وآخره. فمهما التمس الناس الهدى في غير الإسلام، ومهما تفلسفوا عن القوميات ومعانيها... كل ذلك يتبخر ويذهب أدراج الرياح ما دامت الأمة تركن إلى الأهواء القاتلة، والنّعرات القبلية، والطموحات الشخصية، وما دام داء الأمم يضرب بخيله ورجله في أرضها. معين العلاجات كلها يكمن في الأخوة الصادقة والمحبة والمواطنة القلبية بين المؤمنين، وفي عودة الأمة إلى أصلها مرة أخرى، إلى أس العلاج.

٢- محبة الله ورسوله: المحبة عماد العمران، لولاها لما استقام البناء على وجه الأرض لحظات. إنها السبيل الذي يخرجنا من ذلك المستنقع الآسن، والدرك الهابط، والظلام البهيم... إنها السبيل الذي يعيدنا إلى ذلك العمران الأخوي الأول؛ محبة الله ورسوله ومحبة المومنين. ما بال الناس يرتكسون في الحمأة الوبيئة والعلاج بين أيديهم؟ إن المحبة هي العلاج المنسي في عالمنا الإسلامي المعاصر، يتسارع المسلمون إلى فجاج، وإلى جهات، وإلى أساليب ووسائل شتى، بحثًا عن العلاج والعلاج بين أيديهم وهم عنه تائهون.

تلك المحبة هي ترياق العمران، هي المفتاح الذي يقود الأمة إلى عمران أخوي. هي المفتاح الذي يدفع الإنسان إلى اقتحام العقبات الكؤودة من أجل البناء؛ بناء صرح العمران على أس القرآن وسنة النبي إمام أهل الإحسان ﷺ. إن البناء الذي ينسى هذا الأساس المتين، لا يمكن أن يحمي صاحبه من الأخطار الوافدة إليه بشكل من الأشكال، بل سرعان ما ينهار على أم رأسه. إذا انفك قلب الإنسان عن تاج المحبة العظيم، ما الذي يبقى له؟ لا شك أن قلبه يصبح مأوى ووكرًا لأفاعي الريب وسوء الظن، وذئاب الهوى والطمع.

إذن، فهذا العمران لا ينهض إلا على دعامة رئيسة واحدة، ألا وهي دعامة الحب. وإذا سلم أساسها وقامت صافية عن الشوائب والزغل، سَهُل البناء وقام صرح العمران. وكلما كانت المحبة شديدة كلما كان البناء شامخًا ومتينًا.

لو أن القلوب صفت وغُرس فيها مغرس المحبة، لجمع

الله شملها ووحّد كلمتها، ولفجّر القوة من حيث لا تحتسب من كيانها. فما انتصر الإسلام بالفكر ولا الجدال، لكنه انتصر بالمحبة والطاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ وبتلك الروحانية الإيمانية العالية. فالإسلام الفكري وحده لا يحقق شيئًا، لا ينبت كلأ ولا يعطي ثمارًا، لأنه شجرة فوق الأرض لا جذور لها، سرعان ما تعصف بها الرياح العاتية وتهوي بها في مكان سحيق.

٣- إقامة العدل: المقصود بالعدل، الاستقامة في حقوق الله ﷻ وفي حقوق عباده. يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾(المائدة:٨). والقسط المذكور في الآية هو "العدل"، والمقصود بـ"العدل" هو عدل الحكم وعدل القسمة. فالأول هو الفصل فيما يقع بين الأفراد من تشاجر وخصومات، والثاني هو المساواة بين أفراد المجتمع، وذلك بقطع دابر المترفين، وتقليم أظافر المسرفين والمبذّرين، وتسوية الفساد الطبقي، والتكافل الاجتماعي من كفالة اليتيم والمسكين والعاجزين، بالإضافة إلى توفير الشغل للقادرين.

أما إذا كان الظلم والسّفاء محل العدل والإنصاف، فلا شك أن مآل ذلك العمران إلى خراب، ويرحم الله العلامة ابن خلدون القائل في مقدمته: "الظلم مؤذن بخراب العمران".

وعلاوة على ذلك، فإن العدل دعامة لهذا العمران الأخوي وهو أم المطالب التي يقصد إليها الشرع. هو صلب الدين، وبه بعث الله رسله وأنبياءه مبشرين ومنذرين.

وهنا لابد من تنمية وتوفير حاجيات الاقتصاد، للتصدي لضرورات الإنتاج والتصنيع، لأن المجتمع المسلم محتاج إلى حد أدنى من الرفاهية المادية، ليضمن بالمعاش الكريم الراحة الخلقية والروحية لرجاله ونسائه.

٤- التكافل الاجتماعي: لقد فرض الله تعالى حدًا أدنى من التكافل وهو الزكاة، وحض عليه، بل وشدد في فرضيته وجعلها الركن الثالث للإسلام، وما ذكرت الصلاة إلا وذكرت معها الزكاة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾(البقرة:٤٣)، وذلك راجع لأهمية هذا الركن في التأليف الاجتماعي. وجاءت نصوص شرعية كثيرة تبشر مَن قام بهذه الفريضة، بطهارة النفس وفوزه في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾(الأعلى:١٤).

والزكاة شرط المواطنة القلبية المذكورة في قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(التوبة:١١)، وأما وظيفتها الاجتماعية فهي مربوطة ربطا محكمًا بالوجه العبادي الإيماني.

فالمال مال الله ﷻ، والإنسان مستخلف فيه وممتحن به. تُرى ماذا سيفعل به؟ وفي ماذا ينفقه؟ وبأي نية ينفقه؟ أرشد الله ﷻ الإنسان إلى البذل من ماله في سبيله حتى لا يكون هذا المال سببا لخسرانه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(المنافقون:٩).

فالزكاة فريضة من الله تعالى على كل مال -فصيح وصامت- حال عليه الحول وبلغ نصابه. هدفها إغناء المستحق لسنته، لقول فاروق الأمة، سيدِنا عمر بن الخطاب ﷺ: إذا أعطيتم فاغنوا" (رواه البيهقي)، ويعني: من الصدقة. إلى جانب ذلك إغناء الفقراء والمساكين، وكل الأصناف الثمانية المذكورة في القرآن. وهنا قضية يجدر الحديث عنها، وهي أن علماءنا الأفاضل اجتهدوا في هذا العصر ووسّعوا وعاء الزكاة، حتى يشمل الثروات المعدنية والبحرية والفلاحية والصناعية والتجارية والمنتوجات الحيوانية، والمستغلات من عمارات ومصانع، والنفط، والعسل... وحتى لا يبقى وعاؤها كما تركه من تقدم من سلفنا الصالح -رحمة الله عليهم- الذين لم يكونوا يعرفون مثل هذه الأنواع من الثروات، قاصرين على الإنتاج الزراعي البدائي المنحصر في الأنعام والقمح والشعير.

أضف إلى ذلك أن تشريع الإنفاق كان قبل تشريع الزكاة، بل جعل الله تعالى الإنفاق من سمات المتقين الواردة في أوائل سورة البقرة: ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(البقرة:٢-٣). وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من زكاة وصدقة وحقوق أخرى المتعلقة بالأموال، فإن الشرع حث كذلك على البر والبذل.

فوجب إذن، أن ينبعث التطوع الإيماني من إرادة كل مسلم ومسلمة، محبة لله ﷻ واحتسابًا الأجر عليه. فكفالة المسلم وصيانة حرمته حيًّا وحفظ عهده ميتًا، أن يكون مكفولاً لا خاملاً، أن يسعى ليكون منتجًا، ليكون المعطي يحرث في دنياه لآخرته. وعلى هذه الأركان قام العمران الأخوي الأول، فكان نموذجًا خالدًا في التاريخ. وما زالت أنواره تشع على صفحاته، كما كان شجرة راسخة ذات جذع عظيم قوي تغالب الرياح المزمجرة. ■

(*) جامعة محمد الأول / المغرب.

نور أفشان كبال*

قبل الموت الموت

"أيتها النفس الخائفة والهاربة من الموت، تنبهي! فالخوف نابع منكِ وفيكِ.. والخوف ليس من صورة الموت، بل من وجهكِ القبيح! فروحكِ شجرةٌ والموت أوراقها".

عندما نلقي نظرة متفحصة، نجد مولانا جلال الدين الرومي، في آثاره عمومًا وفي المثنوي خصوصًا، يقسم الموتَ إلى نوعين: موتٌ إرادي، وموتٌ طبيعي.

الموت الطبيعي

والموت الطبيعي -البيولوجي- الذي يشكل القسم الثاني عنده، وإن بدا لنا في نظرة سطحية أنه فناءُ الجسد وتلاشيه، فإنه لا يعني العدم. لأن الإنسان ليس كائنًا حيًّا مركبًا من جملة الموجودات المادية فقط، بل يحمل فوق ذلك روحًا خاصة به. ويكون بذلك كائنًا

ذا جانبين؛ جانب مادي، وجانب روحي. فالموت هو بداية المسير نحو أصلِ كل الموجودات، والموت ليس فراقًا ولا فناءًا، بل هو تعبير عن عودةِ كلِّ جزء من الوجود إلى أصله واتصاله به.

يتناول مولانا جلال الدين موضوع البعث "العودة إلى الأصل" بهذه العبارات مستندًا في ذلك إلى الآية الكريمة ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: "لو لم يكن فراقًا تَوَقُّفُنا في هذه الدنيا، ما كان لنا أن نقول، نحن العائدون من جديد، والواصلون إليه. يقال: عائد وراجع، لمن يبلغ من جديد تلك الديار وينجو من مُفْتَرَق الزمان ويبلغ الوحْدة".

الموت الإرادي

والنوع الثاني الذي يتناوله المثنوي، هو الموت الإرادي، وهو بهذا المعنى يشكل إحدى مراكز التَّنَبُّه في التصوف الإسلامي، معتمدًا على مبدأ "موتوا قبل أن تموتوا"، وهو ما يعبّر عنه المثنوي بقوله: "موت البدن بالرياضة هو الحياة، وتعذيب هذا الجسد يعني بلوغَ الروح الخلودَ. فيا له من سعيدٍ مَن مات قبل أن يموت، ونال عبقًا من أصل هذه العناقيد من هذا البستان". ثم يقول مولانا في المثنوي: "موتوا.. موتوا لتنالوا روحًا خالدة، وانقطعوا عن هذا التراب وتخلّصوا من حقول الأجساد لتلمسوا بأيديكم السماوات".

يريد مولانا جلال الدين الرومي في هذه الأبيات أن يقول: إن الحياة الحقيقية شيء مختلف عن الحياة التي يعرفها كل فرد منا بأنفاسه التي تدخل وتخرج. فالإنسان الذي يقضي حياته في الطعام والشراب والرغبات الجسدية -في نظره- لا يعيش في الحقيقة حياةً إنسانيةً. والمعرفة تعني قدرةَ الإنسان على أن يدير ظهرَه لهذه الرغبات التي تُحْدِق به من كل جانب وهو على قيد الحياة، لأن هذه المطالبَ والرغبات، تحمل في نفسها من الطاقة الكامنة، ما تجعلها عبئًا عليه وغمًّا، وهي لا تستطيع أن تشكل خطرًا عند الأموات، لأنها في الأصل غيرُ موجودة عندهم. وفي هذه الحال، ينبغي على الإنسان أن يختار موتًا إراديًّا ومجازيًا، ليتمكّن من الخلاص من همومها -أي الرغبات- وأثقالها.

وفي تأكيدٍ آخر، نجد المثنوي يسلّط الأضواء على البيان أعلاه فيقول: "تطلبُ الموتَ وتشتهيه كما يشتهي الحليبَ الرضيعُ، فلستَ أسيرَ العلّة والمرض. تبحث عن الموت وتتمناه، لا تطلبه هربًا من الآفات والآلام، بل في كنزٍ دفينٍ تَراه في ركنِ بيتكَ المُنهدِم". ففي هذه الأبيات نرى أن رغبة الموت في المثنوي حالةُ شوقٍ مثالية. فقدم مثالين اثنين تأكيدًا لهذه الحالة من الشوق: ميلُ الطفل وشوقُه للحليب والرضاع، وحبُّ الغنى عند من يرى الكنز الدفين.

حقيقة الخوف من الموت

"أيتها النفس الخائفة والهاربة من الموت، تنبهي! فالخوف نابع منكِ وفيكِ.. والخوف ليس من صورة الموت، بل من وجهك القبيح! روحكِ شجرةٌ والموت أوراقها.. وما يَنْبت من خير أو شر فمنكِ، وما كان في النفس مرغوبًا عنه أو فيه، فمنكِ وحدكِ يأتي".

بهذه العبارات، يحاول المثنوي أن يفصح عن حقيقة الخوف من الموت، فيشبهه -أي الموت- بالمرآة. فالموت للأتقياء محبَّب وجميل، وللعاصين مكروه وقبيح. وما يخيف الإنسانَ هو ما يراه في المرآة من قبائحه وسيئاته وليس هو الموت بحدّ ذاته. ولذلك ينبغي علينا -ونحن ندرك حقيقة الموت- أن لا نتعلق بالدنيا، وأن نجعل ختامَنا الذي لا مفرّ منه، حياةً عامرةً بالأعمال الصالحة الحسنة، وأن نستعدّ للحياة الأبدية فلا نُفضي إلى حضْرة المحبوب صِفْرَ اليدَين.

"ستبقى في حالة النَّزْع تُغالِب الموتَ، ولن تنجوَ قبل الموت، فَمُتْ إذًا حتى تفوز بالنجاة. كيف ترتقي سطحًا بسلّمٍ ذي مئة درجةٍ ينقصك فيه درجتان؟! أو تنال الماء من بئرٍ عميقٍ ما لم يبلغْه الحبل ولو كان مئة ذراع؟! فكذلك السفينة لا تغرق ما لم تحْمل حِمْلها الأخير الذي يفوق قدْرتَها! لقد طال النَّزْع لأنكَ ما زلتَ على قيد الحياة! يا شمْعة الظلام! مُتْ عندما يشرق الصباح، ولكن ليس موتًا يودي بك إلى القبر، بل موتًا يسمو بك إلى النور ويوصلك إلى الكمال. ففي موتٍ كهذا ينقلبُ الغمُّ فرحةً وسعادةً، كما لا يبقى للتراب أثرٌ عندما يعود ذهبًا".

حالة نزع الروح

وهنا نجد أيضًا وجهةَ نظرٍ من زاويةٍ أخرى تؤيد ما سبق من المفاهيم. فحالة نزْعِ الروح ليست الحادثةَ التي يعيشها المرء في سكراتِ الموت، لأن حياة الإنسان كلها، عبارةٌ عن مرحلةٍ طويلةٍ من حالة النَّزْع. فالموت عند مولانا جلال الدين، ليس الحالة التي تتحقق دفعةً واحدةً، ولكنه سلسلة أحداثٍ تنتشر في زمانٍ طويل، وتبدأ هذه السلسلة بمجرد قدومنا إلى الدنيا، أدركنا ذلك أم لم ندرك. وما ذُكِر عن ابن آدم ينطبق على

سـائر الكائنـات، فكل مخلوقٍ يكون مع المـوت وجهًا لوجهٍ في كل حين.

فإن كان الأمر كذلك، فما الذي يعنيه موتُ الإنسان عندما يفارقُ الحياة؟! نجد الجواب على هذا السؤال في أوجز تعبيرٍ عند يونس أَمْرَهْ حيث يقول: "إنْ مات، مات الجسدُ، فالأرواح لا تمـوت". فإن كان الذي يموت -حسـب يونـس أمره- هو الأجسـاد، فليـس هناك مـوتٌ في الحقيقـة. وهنا يتبـادر هذا السؤال: فلماذا يموت الجسد إذن؟! سؤال يُتوقَّع أن يخطر في بـال كل واحد منـا. والجواب عليه عند مولانـا جلال الدين: "بستانيٌّ كان يُعِدّ حديقتَه للزراعة، ناداه شخصٌ يراه من بعيد: لمـاذا تخرِّب الأرض يـا هذا؟! فأجابه البسـتاني: بدونه كيف تغدو الأرض حديقةً يا أحمق؟!".

فالسؤال عبثٌ في أصله، وغريبٌ غرابةَ السؤال عن حراثة الأرض، فكمـا أنـه لا يخـاط الثـوب مـن غير قمـاش يُفصِّله خيـاط، ولا طحيـنٌ من غيـر طحن حبوب القمـح، كذلك لا يمكـن بلوغ الكمال ما لـم يمزَّق لباسُ الروح (البدن). فالذي يمزَّق ويَبْلى إنما هو الجسد، ولكن بتمزيقه تُنال حياةٌ أبدية.

هذه النصوص التي اقتبسـناها من المثنوي وحاولنا بيانها، لـم تبق في حـدود النظريات، فقد طبقهـا مولانا جلال الدين الرومـي على نفسـه بالذات. وإذا كان المـوت في نظر الناس انقطاعًـا عن الدنيا، فإنه "ليلةُ العُرْس" عنده، ولحظة الوصال، ولقاء المحبوب.

نـرى إذن، أن مولانا جلال الدين الرومي يؤمن بأن الروح عنـد قدومهـا إلى هـذه الحياة، وعنـد تغرُّبها في هـذا العالم، تغدو حبيسة الأجسـاد، حاملةً معها حسَراتها وأشواقها لذلك العالـم الـذي قدمـت منـه، ويـرى بأن الأبدان ليسـت سـوى مراكـب الأرواح، لا تسـتطيع الخـلاص منهـا إلا بالمـوت. ويسـتند في تلك الواردات كلها إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشـريف. كما يبين موقفه من الموت وتصرفه تجاهه، فيرى بأنه ليس شيئًا مستهابًا، بل هو عند العارفين أمر مرغوب فيه. وهذا الموقف من الموت يمنح لمولانا مكانةً متميزةً بين المواقـف الأخـرى في تاريـخ الفكر الإنسـاني. والموت عند مولانـا، عبارة عن الانتقال من حالة الفراق إلى حالة الوصال والاتحاد، وبلوغ الحياة الأبدية. ■

(*) كاتبة وباحثة تركية. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

درب الأنبياء

إن كنت تحلم بقطف ثمار يانعة في أعمال الإرشاد والتبليغ، فلا تحسبنّ أنها تأتيك مجانًا نتيجة خوارق تتنزل عليك من السماء، بل احرص على أن تأخذ بالأسباب كاملة يأتك الخير مدرارًا. وذلك هو الأصل في شريعة الفطرة وسنة الكون. انظر إلى النبات، أتراه يثمر دفعة واحدة؟! إنما يحتاج إلى زمن طويل من العناية والرعاية حتى ينبت فينمو فيستوي فيؤتي أُكُلَه. تماما مثل البيضة التي لا يَخرُج فرخُها سالمًا إلا بعد زمن مكتوب. فإن كنت ترجو حصيلة طيبة لخدماتك التي تقوم بها في ساحة الإرشاد، فاعلم أنه لن يتم ذلك إلا بعد أن تلتزم بكامل الأسباب الصحيحة والأساليب الصائبة التي تنسجم مع طبيعة تلك الخدمات. أما العكس فسعيٌ وراء أحلام لن تتحقق أبدًا. بالله عليك، أتظن أن الله سيغير سنته الكونية من أجل سواد عيوننا، وهو الذي لم يغيرها من أجل أنبيائه، بل حتى من أجل حبيبه الأكرم ورسوله الأعظم ﷺ؟! الحقيقة أن الأنبياء جميعهم وعلى رأسهم سيد الأنبياء ﷺ عملوا بجد وكافحوا بحكمة سنين طويلة صابرين صامدين مثابرين. ومن ثم جاء اللطف الرباني نصرًا وتوفيقًا منه تعالى، كثمرة لذلك الكفاح الطويل. إذن، من أراد التوفيق والنجاح فليسلك درب الأنبياء.

الأسوة والخدمة

إن من قُدّر لهم أن يقوموا بدور "الأسوة" في أي خدمة إيمانية، فعليهم أن يكونوا "رجال خدمة" حقًا، بكل كيانهم، وفي كل شأن من شؤون حياتهم. عليهم أن يسعوا ليل نهار دون توقف، بل ينبغي ألا يراهم أحد نائمين أبدا؛ بل إذا أمكن فلتكن ثلاث ساعات من يومهم لنومهم وساعتان لسائر شؤونهم، ثم لينطلقوا ساعين خدّاما فيما تبقّى من أوقاتهم. إنه بهذا المستوى من الأداء فحسب، يمكنهم أن يكونوا "مثالا" لمن حولهم، ويكونوا قد وفّوا المسؤولية حقها. أحسب أن أبطالا قد نذروا أنفسهم للخدمة وفقًا لهذه المقاييس سوف يخطئون الطريق إلى منازلهم في بعض الأحيان. هذا وينبغي على "رجل الخدمة" أن يدير ظهره إلى كل شيء يشغله عن قضيته، وألا يقع أسير أي قيد يمنعه من السعي أبدًا، مَنزلا كان أو أهلا أو عملا أو أي شيء آخر... إن "صاحب القضية" أصلاً، ليس له حياة خاصة، اللهم إلا في بعض شؤونه الضرورية.

كظم الغيظ والبطولة

لا شك أن حبس الإنسان لغضبه وكظمه لغيظه إزاء ما يلقاه من إساءات ومنغّصات مناقضٌ لفطرته، لكنّ المطلوب منه، هو هذا الفعل بالذات. ثم إنّ خلوّ المرء من حاسة الغضب مَنقصَة وليست فضيلة أبدًا. إن القرآن يطلب منا في مثل هذه الحالات أن نكظم غيظنا، ونحبس غضبنا، ونصبر على الأسباب التي أثارت حفيظتنا. هناك فرق كبير بين انعدام الغيظ تمامًا وكظمه. فمن عَدِم الغيظَ لم ينل ثوابا لقاء ذلك، لأنه مصاب بحالة غير طبيعية. أما الإنسان الذي انتبه إلى نفسه فوجدها تغلي وقد أوشكت على الانفجار كالبركان، فهبّ مسرعًا، فأحكم قياد ثورتها وكظم نيران غيظها... هذا الإنسان قد يرقى إلى مقام الولاية نتيجة هذا الموقف البطولي... ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

فتح الله گولن

نشيد الفارس

يا أيها الفارس المِغوار،
يا ألقًا.. ويا بهاءً، فقدنا وجهَه أمدًا،
طال الفراق، فهلاّ عدتَ من غَيبة،
فيها عيوني، تطوف الأرضَ في لَهَثٍ،
وجرح روحي أليم، نازف، أبدا،
ووردتي ذبلت، في مهجتي وذوت...

أسِيحُ في الأرض،
أسأل الورى.. هائمًا، عن فارس،
حُلمي في كل آنٍ مضى،
وكل آنٍ يَحُلّ،
أن يفاجئنا، بِطَلْعةٍ...
ومضى الزمانُ منصرما،
وما يزال خيالي خافقًا جَذلا،
يفيض في القلب ألف مرة.. لهفا..

فاشدُد بِخَيل السماء،
كلُّنا أملٌ.. ترقُّب.. شَدَهٌ،
إلى غدٍ مشرق،
وعدًا عليه وإننا، سنشهده،
هنالك أفق ربيعي.. يظللنا،
يمحو الظلامَ..
ويضيء نورُه فرحا

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

قصة

أ.د. خالد الصمدي*

بين يدي قصة فريدة للمرحوم
فريد الأنصاري

لم يكن السكن مع الأخ فريد -رحمه الله- في الحي الجامعي بـ"فاس"، في الغرفة ٤٧٦ في الفترة الممتدة من ١٩٨١ إلى ١٩٨٤ سكنًا عاديًا يجمع الطلاب لحين من الدهر ثم يفرقهم الزمن في دروبه، ولكنه كان جودًا إلهيًا علينا نحن الذين منَّ الله علينا بمرافقته طيلة أربع سنوات من الدرس والتحصيل، لتستمر محبتنا إلى أن نلتقي بمنّ الله ورحمته في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله.

كانت هذه الغرفة مدرسة حقيقية للإبداع الأدبي والتربية والتزكية والتحصيل العلمي، لم نكن ونحن ننتسب إلى شعبة الدراسات الإسلامية، أن تحدنا حدودها وحدود مقرراتها، فقد أقنعتنا سعة نظر الأخ فريد -رحمه الله- وحبه للعلم، أن التكوين الجامعي حقل مفتوح لا تحده حدود. فكنا نختار من حصص الدكاترة ما تطمئن له أنفسنا ونزداد منها علمًا، فلا يكاد يمر علينا أسبوع من الدراسة، إلا وقد درسنا حصة من الفكر الإسلامي عند الدكتور حسن حنفي في شعبة الدراسات الإسلامية، وحضرنا حصة للتاريخ عند الدكتور محمود إسماعيل في شعبة التاريخ والجغرافيا، وحضرنا حصة علم النفس مع الدكتور بنحدو في شعبة الفلسفة، واستمتعنا باللغة العربية من معينها عند الدكتور عبد الله الطيب، وحصة النحو عند الدكتور فخر الدين قباوة في شعبة اللغة العربية، وعرجنا على كلية الشريعة لنحضر حصة التفسير البياني عند الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ يوم الأحد صباحًا، قبل أن نعود إلى غرفتنا لنضع هذا الرحيق المختوم من المعارف على طاولة النقاش والدرس، مع كؤوس الشاي التي لا تخلوا منها جلسة.

وبين الفينة والأخرى كان فريد -رحمه الله- يختفي عنا وهو بيننا، فيجلس القرفصاء فوق سريره كأنه جالس على تل رملي في صحراء أرفود (البلدة التي وُلد فيها فريد ونشأ) صامتًا مركّزًا لا يشعر بما حوله ولو كان مدفع الثكنة العسكرية التي كان لا يفصلها عن حيّنا إلى بضع أمتار، وكان الجند يتدربون فيها على إطلاق مدافعهم بين الفينة والأخرى، فتمتلكنا الرهبة من عظم ما نسمع. فكنا نوقن أن ناموس الشعر أو القصة قد تلبسه، فلا نكلّمه ولا نزعجه كي لا نحرم أنفسنا من الاستماع بعد ذلك، إلى أبيات شعر غاية في الإبداع أو قصة غاية في التصوير والإتقان أو مقال أدبي ساخر من الأوضاع السياسية والاجتماعية التي تعيشها الأمة الإسلامية. وكنتُ ألحظ في محياه قلق الكتابة، فإذا استلقى على ظهره بين الفينة والأخرى، ورفع الدفتر ينظر إليه مستمتعًا بما كتب من الفقرات قلنا: قصة، وإذا قفز من مكانه وغيّر جلساته وكأنه لا يرتاح لوضعية واحدة في الجلوس قلنا: قلق الشعر، وإذا انطوى على نفسه واستوى على كوعه قلت: مقال ناقد للأوضاع فهي مسببة للانطواء، وثقل حملها يتطلب الاستواء على الكوع، ووضع الرأس بين راحة اليد، فيكون ما يكتب كذلك.

وقد كنت -شهد الله- أعرف بنفسيته وهو يكتب، وكنت أول من يقرأ عليه في الغرفة ما كتب إذا كتب. وأحيانًا يحس أنه في حاجة إلى مزيد من الهدوء ومناقشة ما يكتب، فيدعوني إلى أن نخرج سويًا إلى خارج أسوار الجامعة، فنجلس على هضبة مطلة على مدينة فاس العتيقة بمنظرها الساحر، فندخل في نقاش علمي وفلسفي عميق لا يخرجنا منه إلا أذان الصلاة. فكان -رحمه الله- يفتح في فهمي أخاديد من الأسئلة لا زلت أبحث عن أجوبتها في مدرسة الحياة إلى الآن، وقلق السؤال هو مفتاح الإبداع.

وأغلب ما كتب فريد -رحمه الله- من إبداعات في هذه الفترة لم ينشر إلى الآن، وبعض نقاشاتنا وجدت أثرها بعد ذلك في قناديل الصلاة، وكشف المحجوب، والبيان الدعوي وغيرها مما كتب بعد ذلك بسنوات. وعلى غير العادة، كان في بعض الأحيان لا يكتب في دفتره الخاص، وإنما يطلب كتاب أحدنا ليسجل فيه بعض إبداعاته فيما يشبه رسائل خاصة للمعنيّ بالأمر، أو إبداعًا أدبيًا يخصه به هدية وعربون محبة، وكان فريد لا يهديك إلا إبداعًا أو تمرًا.

فكانت هذه القصة مما خصني به، وأنا أخص بها مجلة "حراء"، لأن فريدًا -رحمه الله- كان يخصها بحب خاص، وأحس أنني أستشيره الآن وهو في مرضاة ربه فيجيبني موافقًا: حسنًا فعلتَ... رحمك الله أخي فريد وأسكنك فسيح جنانه.

قصة

أ.د. فريد الأنصاري*

نهاية الجبروت

كان الليل قد مضى إلا ثلثه عندما كان يقترب بلباس البحارة نحو الشاطئ بخطى متلصصة، حاملاً كيسه بيده وصنارة بأخرى، ونسيم السحَر يهب حاملًا أنداء البحر الباردة، وأنساج الضباب تعلو الأفق العريض، تتخللها أنوار البدر الساطع فتكسوها بهاء وجمالا.

نظر إلى الأفق فرأى منارة الميناء تشع بنورها قريبا، فانحدر تجاهها في خفة وهو يشعر بنوع من الحرية والانطلاق.. فقبْل قليل كان سجينًا في قفصه الذهبي، ولم يتخلص من حرّاسه إلا بأعجوبة.. فقد ترك القصر ولم يشعر به أحد، إلا حارسه الخاص كاتم أسراره ومدبر أمره. فمضى نحو مجموعة من الزوارق الراسية على الميناء والفرحة تملأ صدره، وما أن اقترب من الحبال التي تشدها إلى اليابسة، حتى

علا صوت حارسها الذي امتد على إحداها قائلا:

– من هناك؟ ماذا تريد؟

قال وهو يحاول تغيير نبرات صوته حتى لا ينكشف أنه أمير البلاد.

– صياد.. هل من زورق للكراء؟

فانتصب الحارس واقفًا وهو يحمل قصبته بيده وقال:

– لقد سبقك الصيادون إلى الزوارق الجيدة منذ أول الليل، ولم يبق إلا هذا الذي أنا جالس عليه، وهو ممزق الشراع، وأما هذه الأخرى فهي غير صالحة للإبحار كلها.

– أظن الجو جميلًا، والبحر هادئًا.. أفلا يمكن الإبحار بغير شراع، وإنما بالاعتماد على المجذافين، سيما وأنا لا أنوي الابتعاد كثيرًا؟

– هو كذلك..

قالها وقفز إلى قارب آخر بخفة وأردف:

– هذا هو الزورق، فلا تتجه نحو مصب النهر فيدفعك التيار إلى وسط البحر وتجد مشقة في العودة.

فتردد.. ولكنه سرعان ما تذكر أنه يجب أن يبدو بمظهر الصياد المحترف، ثم قفز إلى الزورق، وما أن وصله حتى شهق شهقة عالية، فوضع يده على صدره الذي كان يتفطر هولًا وجزعًا، والزورق يميل يمنة ويسرة. فضحك الحارس بصوت عال وقال ساخرًا:

– تبدو وكأنك تركب الزورق لأول مرة.

فردّ وهو يحاول إخفاء نبرات صوته كما يحاول إخفاء اضطرابه:

– إنما أصبت بمرض صدري منذ أيام فلا أستطيع القفز.

وضع الكيس أمامه، وربط القصبة إلى عمود الشراع الصغير، وأخذ يجذف محاولًا إخراج الزورق من زحمة الزوارق الراسية وهو يصطدم بها من حين لآخر، والحارس ينظر إليه في استغراب حتى خرج من ضيق الميناء إلى سعة البحر.

فتنفس الحارس غيظًا وتمتم:

– ولكن المرض لا يتدخل في حسن القيادة...

...

أحسّ بعياء شديد في ذراعيه وارتخاءٍ في جسده، فتمدد على ظهره فوق الزورق قابضًا بيديه على قصبته التي تدلّى خيطها في الماء الهادئ وراح يتمتع بمنظر السماء، وقد بدت النجوم كأنها عيون ترقص خلف خمر سوداء، فنسي ملكه وهمومه، وأخذته سنة خفيفة مضى بعدها في نوم هادئ لم يستفق منه إلا بعدما أحس بالقصبة تهتز بين يديه، فانتفض ليجذبها بسرعة، فخرجت من صفحة الماء سمكة تتخبط بشدة وهي تحاول الإفلات من الشصّ. فضحك وقال وهو يضعها داخل الزورق:

– تحاولين النجاة من قبضة الملك، لقد حاول ذلك آلاف الجنود فكان مصيرهم أن قطعت رؤوسهم بسيوفهم التي تمردوا بها. إنني ما أقدمت على أمر إلا كان معه السمع والطاعة، فاسمعي وأطيعي يا سمكتي الجميلة.

قالها وهو يدخلها بهدوء إلى الكيس الصغير أمامه.

...

استنشق الهواء ملء منخريه.. فأحس بالتهاب داخل خياشيمه.. لقد برد الجو أكثر.. ونظر في الأفق فقال:

– لعلي قضيت وقتًا طويلًا في البحر.. يجب أن أعود قبل انفلاق الفجر.

وكان وقت الفجر يقترب بالفعل، فأخذ يضرب بالمجذافين يحرث البحر في اتجاه الميناء.

كان العرق قد أغرق رقبته وصدره، ويداه تجذفان ببطء، وأنفاسه تتقطع.. لقد كلَّت ذراعاه.. توقف عن التجذيف برهة ثم نظر إلى الأفق أمامه يبحث عن منارة الميناء فلم يعثر لها على أثر في ذلك الظلام الدامس الذي رحل عنه البدر قبل قليل، ثم نظر إلى الأفق وراءه، فلم ير غير الظلام، فتمتم في جزع:

– إلهي.. أين النجوم ؟ أهي الغيوم التي غطتها؟ وأين المنارة؟ أين الميناء؟ وفي أي مكان أنا بالذات؟ أيكون التيار قد جرفني حقًا إلى وسط البحر؟ كيف؟ لا يمكن.. فأنا الملك.. لا شيء يتحرك من غير أمري أو في غير خدمتي..

جذف ثانية في قوة وإصرار، لكنه كلَّ بسرعة، فأحس بالزورق يولّي إلى الوراء كأنما هو في نهر جار.. فصرخ فيما يشبه الجنون:

– كلا.. توقفْ أيها التيار.. فأنا الآمرُ.. وليس لك إلا أن تسمع وتطيع.

ولكن التيار كان أكثر تمردًا من جنده وأكثر قوة، فقد استمر يجري به دون توقف ولا إذعان..

تنبه الأمير إلى الريح التي تهب في هدوء في عكس اتجاه

الميـاه، فانتفض على عمود الشـراع وأرخى حبله، وسـرعان ما تبين له أنه شـراع ممـزق، وتذكر كلام الحارس عندما كان يخبره بذلك فصاح كالمسعور:

– تبًّا لـك أيها الحـارس.. ألم تعلم بأنـي الملك؟ وكيف تدفـع لـي زورقا كهـذا؟ يا كاتم السـر.. أيها الحـراس.. أريد خير زوارقي السـاعة.. بل أريد سفينتي الخاصة.. هيا اسمعوا وأطيعوا.

تـردد صراخه في الأفق المظلم، ولكنه سـرعان ما اختفى في هدير الرعد القادم من بعيد.

كانـت الغيوم قد اكتسـحت أفق البحـر حقًا منذرة بهبوب عاصفـة كان أزيزها يُسـمع من بعيد، وكانـت الأمواج تتحرك شـيئًا فشـيئًا فترفع الـزورق تـارة وتخفضه أخرى، فاسـودت الدنيـا في نظر الأمير وهو يخبـط بالمجذافين في غير اتجاه.. لقد ضل في ظلمات بعضها فوق بعض.

...

كانت دموع الغيظ تسيل على خديه ببطء وهو يصيح:

– تبًّا لـك أيها البحـر.. كيف تجرؤ على حبسـي هنا وأنا الـذي أَحبِـس ولا أُحبَس، وأحكـم بالإعدام على مَن أشـاء؟ ويلـك مني ويلـك.. لن أرحمك.. لن أرحمك.. سـل قرارك يجيبـك مـن أنا.. فهنـاك آلاف الجثـث راقدة.. لقـد حاولتْ مثلك التمرد والعصيان، فكان مآلها الهلاك والخسران.

اهتزت المياه غاضبة كأنها فهمت كلامه، ورفعته إلى أعلى ثم خفضته في عنف، لتمضي أمامه موجة هائلة في هدير قوي تكسـرت بعدهـا على أحجـار قريبة ضاحكة في سـخرية مرة واستهزاء شديد.

انتبه الأمير إلى أن هناك شـيئًا ما قد تكسـرت عليه المياه، فخطر له أنها جزيرة صغيرة، فحاول أن يتحرك نحوها، ولكن الأمـواج كانت تـرده بقوة.. فقـد كانت العاصفـة قد انطلقت عاتيـة غضوبـة، وكان البـرق يشـتعل من فوق رأسـه كألسـنة جهنمية، والموج يتصاعد من كل مكان، فتبدو له الأشباح في الظـلام هياكل عظيمة ذات جماجم كبيرة تشـق البحر، فتدفع بالأمواج نحوه وهو يصرخ ولا من مصرخ.

كانت صرخاته تضيع في العاصفة وتذوب في هدير البحر متقطعة:

– آآ.. كلا.. أجئتم لتنتقموا يا أبناء الكلاب؟ فأنا أقدر على ذبحكـم مرة أخرى.. هـي.. هي.. هيا اغربوا عن وجهي.. أ.. أ.. أنـا مـن تعرفون.. عودوا إلى القـرار.. إني آمركم.. عودوا إلى موتكم.

كان يجـذف في الظلام جاحـظ العين، وقد التصق بعمود زورقـه الـذي صار لعبـة الأمواج، فتبـدو له الأشـباح عظيمة تتكاثر ولا تسـمع لأوامره، وإنما تزداد منه اقترابًا، ثم يحملق فيهـا أكثـر، فإذا بها تبدو وقد أبرزت أنيابًا ونواجذ عظيمة تمد له أياد كأذناب العفاريت.. فيصرخ ثانية في جنون:

– أيها الحراس.. اسـتعدوا.. أيها الجنود.. أقبلوا جميعًا.. إن الموتى قد عادوا.. الحقوا بي كلكم.. أبحروا بكل رماحكم وسيوفكم.. أيها الحراس.. أيها الجنود أيها الحرا...

ولـم يتمّها.. فقـد رفعت الزورقَ موجـةٌ عنيفة ثم حطمته إربًا إربًا.. وغاص الأمير نحو القرار.

...

كان أذان الفجر يرتفع قويًا في المدينة عندما سمع حراس القصر وجنـوده صراخ الأمير يرج أنحاء القصر، وهو يأمرهم بأوامر غريبة، وينادي بكلمات غير مفهومة.

اسـتيقظ وأذان الفجر لا يزال يتردد في الآفاق من صوامع المدينـة المتعـددة، معلنًا زوال الليل وانطـلاق يوم جديد من مكامن الغيب المجهول.

اسـتوى جالسًـا ببـطء وهـو يشـعر بتعب شـديد ثـم قال مغتاظًا:

– ألا تبًّا له من حلم رهيب.

حاول أن ينهض فلم يستطع، ثم أردف قائلا:

– آه لنفسي المرهقة..

فـرك عينيه ثم نظـر إلى الأفق من نافذتـه الزجاجية.. كان نـور الفجـر ينطلق من بعيـد ويمتزج بالغيوم التـي تلبدت في الفضاء فحوّلتها إلى بحيرة دم سابحة نحو المدينة.

فتح النافذة، استنشـق أنسـام الصباح، فتأكد أنها تنذر بيوم مطيـر، فاختلج قلب الملك في صدره جزعًا، وسـاق النسـيم إلى وجهه نقط ماء باردة، فهجم على النافذة وأغلقها بعنف.. فـي حيـن كان الناس في الطرقات يعـودون من صلاة الفجر، ويـرددون تباشـير أنواء تلـوح بعد دهر جديـب، وقد امتلأت صدورهم فرحًا وانطلقت أساريرهم بهجة، وتعالت أصواتهم بالتكبير مرحّبة بقدوم عهد خصيب. ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب.
والدكتور فريد الأنصاري من علماء المغرب وأقلام "حراء" رحمه الله.

أ.د. أحمد عبادي*

ما خابَ من استشار، ولا ندم من استأنس بأفكار الآخرين.. قراراتك تظل مصحوبةً بالنجاح ما دمتَ تقيم لآراء الآخرين وزنا. أما إذا ركبك الاستبداد، وبرأيك وحده الإعجابُ، فذاك هو الإحباط بعينه، والفشل بنفسه..!

* * *

النبوة والإنسان

١

الوحي من الله ﷻ إلى مخلوقاته في القرآن المجيد على ثلاثة أقسام: ١-وحي منه تعالى إلى الملائكة. ٢-وحي منه سبحانه إلى الإنسان. ٣-ووحي منه ﷻ إلى المخلوقات الكونية. ولكل من هذه الأقسام طبيعته وشاكلته التي يعمل بحسبها.

فالوحي الذي للملائكة أمر منه سبحانه ولا يدخل في بنيتها الخلقية إمكان عصيانه، قال تعالى:﴿لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(التحريم:٦)، والذي للإنسان هداية تبليغ، يملك هذا المخلوق اتباعها، كما يملك التنكّب عنها، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٧-١٠)، وقال:﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾(الأعلى:١٠-١١).

والوحي الذي للكون هداية تسخير لا يملك التنكب عنها، قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(فصلت:١٢)، وقال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(النحل:٦٨).

إن طبيعة عمل الوحي في المجال الإنساني تنسجم وتحمّل الإنسان للأمانة، كما أن طبيعة عمل الوحي في المجال الكوني تنسجم وإباء الكون تحمل الأمانة وإشفاقه منها، وهو ما يتضح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(الأحزاب:٧٢-٧٣).

وبناء على هذا، فإن طبيعة عمل الوحي في المجال الكوني كانت هي الطوع والهداية المبنية على التقدير، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:١١)، وقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣)، وقال سبحانه على لسان سيدنا موسى عليه السلام في معرض جوابه على أسئلة فرعون، معبّرًا عليه السلام عن إدراك نبوي عميق لهذه الحقيقة: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾(يس:٣٨-٣٩). بيد أن طبيعة عمل الوحي في المجال الإنساني بمقتضى حمل الأمانة، تنبني على الكدح والمكابدة وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(البلد:٤)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾(الانشقاق:٦).

ويتضح الفرق بين شاكلتي عمل الوحي في كلا المجالين انطلاقًا من المصطلح المفتاح "السبل". فالسبل في المجال الكوني تسلك ذُللا (أي بيسر) وهو ما يتجلى من خلال قوله تعالى في معرض الكلام عن طبيعة عمل الوحي في المجال الكوني: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾(النحل:٦٨-٦٩). في حين أن السبل في المجال الإنساني تسلك مكابدة وكدحًا كما يتّضح من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت:٦٩)، ومن قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦).

انسلاك الإنسان في موكب الساجدين

ويبرز في القرآن المجيد أن نتيجة عمل الوحي في المجالين هي السجود، غير أن السجود في المجال الكوني –ولطبيعة عمل الوحي فيه– يتم تلقائيًا تقديرًا وهداية، في حين أنه لا يتم في المجال الإنساني إلا بالكدح والمكابدة، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(الحج:١٨)، ويقول: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۞ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۞ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:١-١٠)، حيث جاءت كل الكائنات المذكورة في هذه الآيات معرّفة إلا النفس الإنسانية، فقد جاءت نكرة، وذلك لأن كل الكائنات -بناء على ما سلف- تولد ووحيها معها، ولذلك هي معرّفة، بيد أن الإنسان هو المسؤول عن إدخال الوحي إلى مجاله، ولذلك فهو المسؤول عن وضع ألف لام التعريف التي تناسب مسلكه أمام نفسه، لتكون إما "النفس المطمئنة" أو "النفس اللوامة" أو "النفس الأمارة بالسوء".

إن انسلاك الإنسان في موكب الساجدين لله ﷻ أمر لا

يبرز في القرآن المجيد أن نتيجة عمل الوحي في المجالين هي السجود، غير أن السجود في المجال الكوني –ولطبيعة عمل الوحي فيه– يتم تلقائيًا تقديراً وهداية، في حين أنه لا يتم في المجال الإنساني إلا بالكدح والمكابدة.

يمكن البتة بدون الوحي. فكما أن أمر الكون لا ينصلح بدون الوحي إلى السماوات والأرض ومختلف الكائنات وكذا التقدير والهداية، فإن أمر الإنسان فردًا وجماعة لا ينصلح بدون الوحي، ومن هنا محورية النبوة في حياة الإنسان، يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۞ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيدًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۞ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(النساء:١٦٣-١٧٠).

إحلال الوحي في واقع العالمين

وإن إحلال الوحي في واقع العالمين كان هو العمل الذي قام به سيدنا رسول الله ﷺ مع الجماعة المسلمة الأولى التي تعتبر جنين الأمة الفرد/الجسد،(١) الأمة التي تكتمل عبر الزمن، حيث تركها عليه أزكى الصلاة والتسليم مقياسًا شاخصًا لا تتخوّفه الأحداث. فقد بدأ زرعه عليه الصلاة والسلام للآيات من نفسه الشريفة؛ "كان خلُقه القرآن" (رواه البخاري)، ثم زرعها في نفوس أصحابه الكرام ﷺ، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:٢٩)، ليرفعها الأصحاب الكرام ﷺ علامات وبصائر في واقعهم، واقع المدينة المنورة والذي استحق أن يكون الوحدة القياسية وحالة السواء التي تقاس عليها التجمعات البشرية.

لقد شبه نبي الهدى ﷺ عمله بعمل الفلّاح البصير الذي يعالج الأرض الصالحة متحينًا أوقات الحراثة والنقش والتنقية والسقي، مترصدًا تقلب الأنواء، محددًا -عبر الموسم- أنواع الوظائف والمهام التي يرتبها على نفسه لاستخراج أحسن ما يمكنه -بقدر الله- من هذه الأرض. فعن ابن مسعود ﷺ قال: "كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا" (رواه البخاري ومسلم).

وقال النبي ﷺ: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" (رواه البخاري). فرسول الله ﷺ كان يبث الآيات في نفوس أصحابه الكرام ﷺ بطريقة رباعية الأبعاد.

البعد الأول: تلاوة الآيات وتأوّلها واتّباعها بين ظهرانيهم ليروا ذلك ويحيوا نورانيته، قال ﷺ: "صلّوا كما رأيتموني أصلي" (رواه البيهقي)، وهي سنته الفعلية.

البعد الثاني: تعليمهم الكتاب ومعانيه العلمية والعملية فقهًا وتمثلا.

البعد الثالث: بناء مهارات في أنفسهم تمكّنهم من الفرقان والتمييز وتعلمهم وضع الأشياء والأقوال والمقدّرات في مواضعها، وتلكم الحكمة.

البعد الرابع: تزكيتهم وتنويرهم تخلية وتحلية وهو البعد الأخص.

وقد كانت وراثته ﷺ في البعدين الأول والثاني عامة وفي البعد الثالث أقل عمومًا، أما وراثته في البعد الرابع فكانت خصوص الخصوص. وهذه الأبعاد هي التي يجمعها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(الجمعة:٢). والصحابة الكرام ﷺ كانوا هم مستودع هذه الأسرار وجماعها وتجلي أنواره النبوية تلاوة، وتزكية، وتعليمًا للكتاب، وتعليمًا للحكمة. وخرم دائرتهم النورانية بسب أو بقذف خرم للكل النوراني المجموعي التمامي الذي شكلوه ﷺ، ولعل حرص سيدنا عمر ﷺ

على بقائهم في المدينة وعدم ترخيصه رضوان الله عليه لهم بمغادرتها أثناء حياته كان صادرًا عن هذا الوعي، وكان تجليًا لحرصه المبارك على استكمال البناء واستتباب الدين قبل الانطلاق في عملية بثه في الآفاق.

تجريد الوحدة القياسية

إن تجريد الوحدة القياسية على الصعيدين الفردي والجماعي أمر في غاية المحورية في حياة الإنسان فردًا واجتماعًا. فقد عانت البشرية كثيرًا -ولا تزال- في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية من جراء عدم الاستبصار بمعالم وسمات الإنسان السوي والمجتمع السوي، المشكّلين للوحدة القياسية التي يجب أن يُتيمّم شطرها بالمناهج والبرامج التربوية، وكذا بمختلف أنواع الكسب العلمي والعملي في المجالات الاجتماعية والنفسية.

ولذلك نرصد في مختلف حقب تاريخ البشرية المعروف، كثيرًا من التخبطات وأضرب الخرص في المجالات التربوية والاجتماعية والإنسانية بسبب غياب هذا الوعي الأساس.

وتأتي الأهمية البالغة للوحدة القياسية الدالة على حالة السواء، من كون التعرف على حالات الاختلال والانحراف لا يمكن بدونها، كما لا تمكن بدونها معالجة هذه الاختلالات والانحرافات. وهذه حقيقة ماثلة في مختلف مجالات العلوم المادية والإنسانية، غير أنها اليوم أجلى وأظهر في العلوم المادية البحتة منها في العلوم الإنسانية.

لقد حاولت البشرية في مختلف مواقعها عبر تاريخها الممتد، أن تحل إشكال الوحدة القياسية على الصعيد الاجتماعي من خلال إنتاج يوطبيات (Utopias) حول طبيعة مكونات المجتمع الفاضل والمدنية الفاضلة، وعلى الصعيد التربوي من خلال إنتاج مفهوم البطل.

أنموذجًا على المحاولات في الجانب الاجتماعي، جهود أفلاطون في "المدينة الفاضلة" وجهود القديس أغوسطين في "مدينة الإله" وجهود الفارابي في "المدينة الفاضلة" أيضًا، وكذا جهود كارل ماركس وبعده لنين، وكذا تصورات كل من ستالين وهيتلر وموسوليني للمجتمع الفاضل، وهي يوطبيات جرت لعدم مواءمتها لطبيعة الإنسان والكون على العالمين وبالًا غير قليل.

وأنموذجًا على المحاولات في الجانب الفردي، ما يوجد في الأعراف المصرية والإغريقية والهندية والصينية وفي حضارات بلاد الرافدين، وكذا في الحضارة الرومانية من إقامة النصب والتماثيل لأشخاص مختارين يرفعون إلى مصاف الأبطال ليكونوا مُثلاً تربوية يعاد إنتاجها، غير أن ضعف المؤهلات الإدراكية والآليات التفكيكية، لم يمكّن من الرسم العلمي والوظيفي لمعالم شخصياتهم وسمات نفسياتهم ومراحل مساراتهم، مما كان يؤدي في كثير من الحالات إلى الانحسار في التقديس. وقد استمر هذا الخط في الحضارة المعاصرة، إذ يلحظ استمرار البحث عن الأبطال لإرسائهم نماذج تحتذى، وصب سمات شخصياتهم الأساسية في المناهج التربوية. غير أن هذا النهج -كذلك- لم يحقق إلا نتائج جزئية لغياب الاستبصار بحقيقة الإنسان السوي ودوره الكوني.

الإسلام وردم الهوة بين المتأسي والمتأسى به

حين نبحث إشكال التأسي في القرآن المجيد وفي السنة النبوية المطهرة، نجد تمحورًا حول المحاور الكبرى الآتية:

١- النبي بشر عبدٌ لله مثل البشر، غير أنه اصطُفي بعلم الله ليوحى إليه. ونجد ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف:١١٠).

٢- التأسي في القرآن المجيد يتم بالنظر إلى النبي المثال فبالنظر إلى الحال ثم العمل على الانتقال من الحال إلى المثال. قال تعالى في معرض الكلام عن نبيه إبراهيم عليه السلام وعن أتباعه الخُلَّص: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(الممتحنة:٦)، وقال عن خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١).

فالأنبياء إذن، مثال هاد لمن قام في قلوبهم الشوق والتوق إلى ما عند الله سبحانه، وتجلى هذا الشوق وذاك التوق بالذكر الكثير له سبحانه. والأنبياء هم الوحدة القياسية المرجع التي تمثل حالة السواء الشاهدة التي ينبغي أن يرصد من خلالها الحال، لكي يتم العمل للعالم المهتدي على نقله إليها. فهو إذن، شوق وتوق وذكر كثير ونبي شاهد وعمل دؤوب عالِم، ففضل من الله كبير، مع وجوب الانتباه إلى العقابيل الحائلة دون هذا الإنجاز الضخم -التأسي- الذي عليه يقوم تحصيل السعادتين في النشأتين بالتوكل على الله تعالى.

وهـذه المعانـي كلهـا قد جمعها قول الله ﷻ في سـورة الأحزاب، إذ قـال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُـولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمًا ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُـمْ وَمَلَائِكَتُـهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّـورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۞ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۞ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۞ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۞ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾(الأحزاب:٤٠-٤٨).

٣- النبي شـاهد وشـهيد مُؤيد: النبي هو الوحدة القياسية الشـاهدة التي تمثل حالة السـواء في المجال الإنسـاني، والتي بالنظر الواعي إليها يتـم التعرف على الاختلالات التـي فـي هـذا المجال جمعًا وإفـرادًا. بذلك يحصل إمكان العمل علـى ردها إلى حالة السواء.(٢) وتلك نعمة من الله جُلَّى.. حتى إذا تمت إفادة الأمة من النبي ﷺ، فإنها بدورها تصبـح وحدة قياسـية علـى الصعيد الاجتماعي والحضـاري، يمكّن التعـرّفُ عليها من التعـرّف علـى الاختلالات في هـذه الأصعدة، ومن ثم يمكن التعـرف على ما يلزم من العمـل لـرد هـذه الاختلالات إلى حالة السـواء، وهذا هو ما يتجلى فـي قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُـولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الحج:٧٨)، وفي قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـطًا لِتَكُونُوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

وحتـى يكـون النبـي بعـد اصطفائـه لهـذه الوظيفـة التكوينيـة الخطيرة قـادرًا على الاضطـلاع بهـا، يكون إنعام الله بالتأييد. قال تعالى عن نبـي الختم ﷺ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُـوكَ فَإِنَّ حَسْـبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّـدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفـال:٦٢). كما أن النبي لهـذا القصـد -قصد أن تمثل فيه الوحدة القياسـية الشـاهدة- يصنع ظاهـرًا وباطنًا على عيـن الله ﷻ، وقـال سـبحانه عن نبيه موسـى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّـةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(طه:٣٩)، وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه:٤١)، وقال سبحانه عن خاتم النبيين: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَـكَ ذِكْرَكَ﴾(الشرح:١-٤). وقـال ﷺ في هـذا المعنى: "أدّبني ربي فأحسـن تأديبي" (كشف الخفاء). فكانـت النتيجـة في حقه عليه الصلاة والسـلام هـي قوله تعالـى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُـقٍ عَظِيمٍ﴾(القلـم:٤). ومن أجل ذلك كان اتباعه والتأسـي به ﷺ هو المرقاة إلى مرضاة الله ومحبتـه. وقـال ﷻ: ﴿قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّـونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُـمُ اللهُ﴾(آل عمران:٣١).

إن انـسـلاك الإنـسـان في موكب الساجدين لله ﷻ أمر لا يمكن البتة بدون الوحي. فكما أن أمر الكون لا ينصلح بدون الوحي إلى السماوات والأرض ومختلف الكائنات وكذا التقدير والهداية، فإن أمر الإنسان فردًا وجماعة لا ينصلح بدون الوحي.

الوحدة القياسية على المستوى الفردي

لقـد سـاد بين المسـلمين في الأزمنـة الأخيرة من تاريخهـم، على خلاف مـا كان عليه الأمـر فـي عهـد الصحابة الكـرام ﷺ، التعامل التبركي مـع آثار ودلائل النبوة وشـمائل النبـي ﷺ وسـيرته العطـرة عليه الصلاة والسـلام. وفي ذلك خير كثير فـي ذاته، غير أنه لـو شُـفِع بالوظيفية لكان الخير أعـم وأتم. ونقصد بالوظيفية هنا، أن يتم طرح الأسـئلة العمليـة علـى آثـار النبوة، من أجـل تبين أوجه الشـهادة النبوية في مجـال مخصوص،

وتحديد منهجية الرد بخصوصه إلى الوحدة القياسية. وهي أسئلة لا يمكن طرحها بطريقة سليمة إلا من لدن العالمين بالمجال قيد الدرس، إذ العلم بالمجال هو الذي يمكن من تلمس مواطن الهدي النبوي فيه، للتأهيل الناجم عن استتباب التضاريس المعرفية والمركبات المفاهيمية والأنساق القياسية ذات الصلة بالمجال في أذهان المشتغلين به. مما لا ينتج إلا بطول الممارسة للبحث في مجال معين والتعاطي مع المشاكل المنهجية التي فيه. ففي التربية مثلًا، لن يكون أقدر على مساءلة آثار النبوة في هذا المجال من التربويين، لمكابدتهم له ولمعاناتهم البحثية داخله، معاناة تنشئ الشوق والتوق، وكذا الاستعداد لوجدان الحلول.

إن التعرف على الإنسان الشاهد -الوحدة القياسية- الذي يمثل حالة السواء، والذي من خلال التعرف على بنائه النفسي والشخصي والقصدي، هو المدخل لإنتاج العلوم الوظيفية والمناهج العلمية الممكنة من رد الاختلالات إلى حالة السواء، وهنا الدور المحوري الخطير لوظيفة النبوة ووظيفة الذكر الذي تأتي به متى ما حلّ الرشد في التعامل معهما والتأسي بهما. فالتعرف على حالة السواء -كما تقدم- يمكن من تجريد المثال التفصيلي الذي ينبغي أن يشمّر من خلال البرامج والمناهج، للسير بالمتربين نحوه بغير عِوج ولا أَمْت. وهذا مضمار -في العلوم التربوية- للبحث والإبداع فسيح خصيب.

ودائمًا في علاقة بالوحدة القياسية على المستوى الفردي، فإن علم النفس وعلم النفس السلوكي وعلم التحليل النفسي، كلها علوم تعاني الأمرَّين لغياب العلم بماهية حالة السواء. ولا شك أن أهل هذه المجالات، إن أعملوا عقولهم ووجداناتهم لاستبانتها من آثار النبوة، فسوف يحلُّون إشكالات أليمة ومكلِّفة. لقد أنعم الله على العالمين بأن تولَّى سبحانه في مرحلة الختم بذاته العليّة حفظ الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩). فحفظت بذلك آثار النبوة المنيرة، واستمر إمكان التعرف على النبي الشاهد وعلى حالة السواء من خلاله. إن هذه النعمة الجُلَّى إن شكرت بحسن التوظيف والتثمير، ولم تُكفر بالإنكار والاستهتار، لمن شأنها أن تهدي العالمين إلى مستقبلات أكثر إشراقًا.

الوحدة القياسية على المستوى الجماعي

لقد عانت البشرية كثيرًا على الصعيد الاجتماعي من آثار الجهود الخارصة، لتبيّن معالم وسمات العمران البشري الأمثل، كما عانت عبر تاريخها من إملاءات وتحكمات المستبدّين أفرادًا وجماعات. وقد كانت الذعائر والتكاليف باهظة، إذ كم قُدم ويقدّم من الأبرياء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا حطبا لهذه المشاريع اليوطوبية، ليُتَبَيَّن بعد حين أنها لم تكن سوى سراب يباب، ولات حين مناص، وما الحالة السوفياتية منا ببعيد.

وبما رحمة من الله تعالى، فقد جعل سبحانه الوحدة القياسية على المستوى الاجتماعي، تتمثل في المجتمع النبوي، حيث تمكن النبي الخاتم ﷺ، من جعله بهداية الله وتوفيقه يَنُثُّ كله بالهداية للتي هي أقوم، فضاء وعمرانا وإنسانا ووظائف ومراكز وعلائق. وقد كان البدء بأن تم تغيير اسم مهاجر الرسول الخاتم ﷺ من طيبة ويثرب إلى المدينة -بألف ولام التعريف- ليفهم أن العمران الشاهد كان هو ذاك. ولئن تكلم الفلاسفة عن المدينة الفاضلة، وتاقوا إلى التعرف على الوحدة القياسية بهذا الخصوص، فإن النبوة -بأمر الله وفضله- قد أنشأتها واقعًا حيًا نابضًا حفظت معالمه المركزية رغم كل التفريط والتقويض الذي يَبْدُر مثله عن البشر.

فالنبي الخاتم ﷺ كما تقدم، قد زرع آيات الوحي وعلاماته وبصائره في نفوس أصحابه الكرام ﷺ، فاندَهَقَتْ منها إلى واقعهم لتكون هاديات خالدة للمحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك. إن في كتاب الله كما في سنة سيدنا رسول الله ﷺ، البيّنات الوافرة على السلط والمراكز والأدوار والتدبيرات والوظائف والعلائق والنماذج والأخلاق والقيم التي ينبغي أن تَشْخَصَ في المجتمع الشاهد، في حالة السراء وفي حالة الضراء، في حالة الشدة، وفي حالة الرخاء، في حالة السلم، وفي حالة الخوف، وكذا الحرب واللأواء.[٣] مما ليس ينتظر إلا العقول المتمرسة الخبيرة لطرح الأسئلة المنهجية، من أجل رفع صرح علم التأسي على الصعيد الاجتماعي.

خاتمة

وجب ختامًا التنبيه إلى بعض الأسس المهمة من أسس علم التأسي وآكدها.

١- استدماج الوعي بأنه ﷺ قد طبّق القرآن المجيد التطبيق الأمثل.

٢- أن يتم التعرّف العقلي والوجداني والعلمي على نبي الرحمة ﷺ، إذ إن هذه المداخل التعرفية متكاملة فيما بينها ويفضي بعضها إلى بعض، ولا تتصور معرفة كاملة بسيد

الخلق عليه الصلاة والسلام بدون اعتمادها جميعًا. فجماع العلم أن يضحى العالم قادرًا في كل حين أن يسأل نفسه السؤال الآتي: لو كان رسول الله ﷺ في مقامي ماذا كان سوف يصنع؟ ثم يكون قادرًا على الإجابة.

٣- أن يعلم المتأسي حيثيات السياق الزماني والعمراني الذي يوجد فيه، وحيثيات سياق المتأسى به ﷺ، الزمانية والعمرانية والبيداغوجية.[٤]

٤- أن يعلم المتأسي الفروق الأنتروبولوجية والثقافية والعُرفية وغيرها بين السياقين، حتى إذا ساءل في أي مجال من المجالات، استدمج هذه الفروق ليكون التنزيل سليمًا، ولا يخفى ما يقتضيه هذا من جهد بحثي ممنهج.

٥- أن يستدمج المتأسي العلم بالمقاصد العامة للنبوة، رحمتها وجمالها وشرائعها، حتى لا يفرط في الأصول لحساب الفروع أو يقدم ما من شأنه أن يؤخر أو العكس. وهذا داخل ضمن فقه الموازنات والترجيحات، وقد قام علماء الأمة -جزاهم الله خيرًا- بجهود وضيئة في هذه المضامير.

٦- أن يستحضر المتأسي وجوب النظر في المآلات واعتبارها، حتى لا يكون جالبًا لمفاسد على نفسه ومحيطه من حيث يريد جلب المصالح، وكثيرًا ما يحصل ذلك إذا أغفل البعد المستقبلي في التنزيل.

٧- كما أن من آكد الشروط أيضًا، وجوب المقاربة التكاملية التي لا تهمل جانبًا من الجوانب أو تطغيه، بل تحرص على حضورها ومراعاتها جميعًا بشكل مقدّر متوازن.

وبدون مراعاة هذه الشروط، فإنه لا يمكن تفعيل وظيفة ودور الشهادة كما جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

بقيت الإشارة أخيرًا إلى أن في تراثنا جهودًا مباركة وجب استئنافها في هذا الاتجاه لعلماء أفاضل هم بسبق حائزون تفضيلا، مستوجبون من أمتهم ثناءها الجميلا، كأمثال القاضي عياض السبتي في "شفائه"، والشاطبي في "موافقاته" و"اعتصامه"، وابن القيم في "زاد المعاد"، والصالحي في "سبل الهدى والرشاد"، وشاه ولي الله الدهلوي في "الحجة البالغة"، وسعيد النورسي بديع الزمان في "رسائل النور"، وعبد الحي الكتاني في "التراتيب الإدارية في الحكومة النبوية" والأستاذ فتح الله كولن في "النور الخالد" وغيرهم ممن وجب البناء على جهودهم وتثميرها.

كل ذا دون فقدان الاستبصار بأنه رغم كل ما يمكن أن يبذل في مجال علم التأسي، فإنه يبقى مجالًا متجددًا بتجدد الأزمنة والأمكنة والأحوال والأعراف والعادات.. ويرحم الله الإمام السهيلي إذ سمى سيرة رسول الله ﷺ: "الروض الأُنُف".[٥] ■

---

[٥] الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

[١] ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائرُ جسده بالسهر والحُمَّى"، (صحيح البخاري)، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم:٥٥٨١.

[٢] يلاحظ أن حالة السواء في كتاب الله، نسق مفتوح آخذ بعين الاعتبار للخصوصيات والسياقات، وهو ما نرجو بعون الله تفصيل القول فيه في بحث لاحق.

[٣] وما أروع الصورة المشرقة التي يعرضها كتاب الله لمجتمع المدينة الشاهد وهو بعد في طور التكوين في مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحشر:٩-١٠).

وفي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والفرقان والطلاق والمجادلة وغيرها غرر بهذا الصدد لا تنتظر إلا التجلية المتجددة.

ولعل تنبّه الإمام مالك بن أنس الأصبحي ﷺ إلى هذه الحقيقة بشكل عام وراء افتراعه لأصل من أصول مذهبه المبارك، حيث جعل "عمل أهل المدينة" أصلا من أصول التشريع لما تضمنه هذا المجتمع الشاهد من هاديات لن تتكشّف كل حقائقها إلا عبر الزمن.

كما أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لتنبُّهه إلى أهمية حفظ هذه الوحدة القياسية الاجتماعية في مرحلة التكوين حتى تثبت أركانها، كان قد نهى الصحابة ﷺ عن مغادرة المدينة المنورة حتى يستتب البناء وتُحفظ الشهادة، فلم يتمكنوا من مغادرتها إلا بعد وفاته ﷺ.

[٤] لأنه ﷺ جاء معلمًا للناس: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:١٥١). فوجب أن يؤخذ هذا الجانب التعليمي أيضًا بعين الاعتبار حين التأسي.

[٥] أي الروض البكر الذي لم يُدخل قط!

صلاح عبد الستار الشهاوي*

البتّاني

فلكي ورياضي فذ

بعد أن حمل المسلمون أنوار الإسلام إلى الدنيا، ورفعوا لواء الحضارة والعلم والمعرفة قرابة قرون ثمانية فيما بين الأندلس غربا وبلاد السند شرقًا، تركوا للمعرفة الإنسانية تراثًا لم تتركه أمة قبلهم ولا بعدهم، يتمثل في أمهات الكتب والمعاجم والموسوعات التي خطتها أقلام العلماء والأدباء الذين أفنوا أعمارهم في التفكير المثمر والإنتاج الغزير نثرًا وشعرًا وعلمًا وفنًا، وكانوا يطربون لصرير أقلامهم كما يطرب الموسيقار لألحان الآلة التي يعزف عليها.

ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ، الفلكي أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البَتّاني. يكنى بـ"البَتّاني" نسبة إلى مسقط رأسه "بَتّان"، كما يكنى بـ"الرقّي" نسبة إلى مدينة "الرقة" التي قضى بها معظم حياته مع الكثير من الأسر الحرانية، وأنجز بها الكثير من أرصاده وإنجازاته العلمية.

ولد أبو عبد الله البتاني حوالي عام (٢٤٠هـ-٨٥٤م) في "بتان" بإقليم حران. وينسب إقليم حران إلى مدينة حران التي كانت تقع بشمال غرب العراق بين مدينتي الرقة والرها بشمال غرب العراق. وكانت أسرته تدرّس قديمًا الديانة الصابئية، ومنها جاءت نسبة "الصابئي" إليه مع أنه كان مسلمًا قبل أن يكون عالمًا.

أمضى البتاني معظم حياته يرصد الأجرام السماوية بمرصد الرقة أو مرصد "البتاني" من عام (٢٦٤هـ-٨٧٨م) حتى عام (٣٠٦هـ-٩١٨م). وقصد بغداد في إحدى مهماته العلمية، لكنه توفي عام (٣١٧هـ-٩٢٩م) في الطريق أثناء عودته في قصر "جيس" إلى الغرب من دجلة، قليلًا قرب سامراء.

دراسته وحياته العلمية

لا تتوافر تفاصيل عن أساتذة البتاني والمرحلة التعليمية في حياته، لكن المعروف أن "علي بن عيسى الأسطرلابي" و"يحيى بن أبي منصور" كانا أكبر الفلكيين في العصر الذي نشأ فيه، ويحتمل أنه تتلمذ على أحدهما -خصوصًا وإن الأول كان حرانيًا مثله- أو على بعض تلاميذهما. الأمر المؤكد أن البتاني قد استوعب المؤلفات الفلكية المتوافرة في عصره، خصوصًا المجسطي لبطلميوس، والذي كتب فيما بعد تعليقًا عليه وانتقد بعض أراء بطليموس الواردة فيه.

ذكر ابن النديم في "الفهرست" أن البتاني بدأ رحلته مع الرصد الفلكي عام (٢٦٤هـ-٨٧٨م).

ومن الثابت أن البتاني أقام فترة بمدينة الرقة، وأجرى بها قسمًا من أرصاده التي تواصلت حتى عام (٣٠٦هـ-٩١٨م) وفقًا لما ذكره ابن النديم، وأنه أقام فترة أخرى بمدينة أنطاكية بشمال سوريا حيث أنشأ المرصد الذي عرف باسم "مرصد البتاني".

وعمومًا كان عصر البتاني، عصر ازدهار علم الفلك الإسلامي وعصر تتابع الإنجازات العلمية الإسلامية في مجال هذا العلم. والجدير بالذكر أن البتاني قد نشأ في عائلة جُلّ أفرادها علماء، فهو أحد أحفاد العالم الكبير "ثابت بن قرة" (ت ٢٨٨هـ-٩٠١م).

إنجازات البتاني العلمية

حقق البتاني إنجازات بارزة في علم الهيئة (الفلك)، بالإضافة إلى إنجازاته في العلوم الرياضية (حساب المثلثات، والجبر والهندسة) والجغرافيا. ونظرًا لروعة إنجازاته الفلكية، حاز لقب "بطليموس العرب" تشبيهًا له بالعالم الفلكي والرياضي والجغرافي السكندري "كلوديوس بطليموس" الذي عاش في القرن الثاني الميلادي.

والبتاني يعرف في الغرب باسمه المحرف "ألباتيجنوس" (Albategnius) و"ألباتيجين" (Albategni).

إنجازات البتاني في علم الفلك

أهم إنجازات البتاني الفلكية، أرصاده الصحيحة التي تعد أدق ما أجراه الفلكيون العرب من أرصاد، ومن أدق الأرصاد التي أجريت حتى القرن السابع عشر، الأمر الذي ما زال يثير دهشة وإعجاب علماء الفلك، نظرًا لافتقار البتاني للآلات الفلكية الدقيقة التي توافرت في القرنين الماضيين، ولا نقول ما هو موجود منها الآن! وفي إطار تلك الأرصاد الصحيحة، رصد البتاني زاوية الميل الأعظم، وقاس موضع أوج الشمس في مسيرتها الظاهرية فألفاه قد تغير عن القياس الذي أجراه بطليموس في القرن الثاني الميلادي. وهذه هي أهم إنجازات البتاني في الفلك.

- صحح البتاني قيمة الاعتدالين الصيفي والشتوي.
- حسب قيمة ميل فلك البروج على فلك معدل النهار فوجدها (٣٥) دقيقة و(٢٣) ثانية. والدراسات الفلكية تبين لنا أنه لم يخطئ إلا في دقيقة واحدة حسب طول السنة الشمسية بدرجة عالية من الدقة، وبخطأ مقداره دقيقتان واثنتان وعشرين ثانية فقط.
- أجرى أرصادًا دقيقة للكسوف والخسوف. اعتمد عليها فلكيو الغرب في حساب تسارع القمر أثناء حركته خلال قرن من الزمان.
- برهن على احتمال حدوث الكسوف الحلقي للشمس. وفي ذلك مخالفة وتصحيح لرأي الفلكي السكندري بطليموس.
- حقق مواقع عدد كبير من النجوم، وصحح بعض نظريات حركات القمر وكواكب المجموعة الشمسية.
- توصل إلى نظرية قوية الأسانيد، توضح وتفسر أطوار القمر عند ولادته.
- أوضح البتاني حركة الذنب للأرض.

إنجازات البتاني في حساب المثلثات

- وصل البتاني إلى بعض المعادلات الأساسية والحلول الهامة في علم حساب المثلثات الكري (Spherical Trigonometry)، وهو العلم الرياضي الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في ارتقاء علم الفلك.
- البتاني هو أول من استبدل "الوتر" الذي كان بطليموس يستعمله بـ"الجيب"، وهو إحدى النسب المثلثية ويساوي حاصل قسمة طول الضلع المقابل للزاوية على وتر المثلث القائم الزاوية.
- توصل البتاني إلى معادلة جبرية لحساب قيمة الزاوية بمعلومية النسبة بين جيبها وجيب تمامها.
- البتاني هو أول من حسب الجداول الرياضية لنظير المماس.
- البتاني هو من أوائل العلماء المسلمين الذين استخدموا

الرموز في تسهيل العمليات الرياضية.

البتاني يصحح رأي بطليموس

كان الفلكيون قبل البتاني وعلى رأسهم بطليموس، يقولون بثبات ميل حركة أوج الشمس بحساب دائرة الفلك، إلى أن جاء البتاني فبيّن أن الميل يتغير مع الزمن، وأن أوج الشمس والتباعد المركزي لمسارها قد تغير منذ عهد "أبرخس"، على الرغم من أن بطليموس أكد ثباتها. ولم ينس البتاني أن يوضح أن حركة أوج الشمس هي حركة الاعتداليين، ومن ذلك أوجد أن طول السنة المدارية هو (٣٦٥) يومًا و(٥) ساعات و(٤٦) دقيقة و(٣٤) ثانية، أي بخطأ نقصانٍ مقداره دقيقتان و(٢٢) ثانية. بينما كان خطأ بطليموس بزيادةٍ مقدارها (٦) دقائق و(٢٦) ثانية؛ كما أنه أوضح كيفية تغير القطر الظاهري للشمس والقمر، مثبتًا إمكانية حدوث الكسوف الحلقي للشمس، بعكس ما كان يظنه بطليموس. وقد استخدم البتاني في إثبات ذلك أجهزة فلكية من صنعه، منها جهاز لقياس الارتفاع الزاوي للشمس. هذا الجهاز الذي يتألف من عامود شاقولي طوله موضوع على مستوى أفقي يقاس عليه طول ظل هذا العامود.

شكلت جداول البتّاني الفلكية -المترجمة إلى اللغة اللاتينية- ركائز علم الفلك لقرون عدة، ومع ذلك فالبتاني معروف أكثر في تاريخ الرياضيات باعتباره أول من أدخل الجيب وجيب التمام بدلًا من الوتر في الحسابات الفلكية وحساب المثلثات.

مؤلفات البتاني

ألف البتاني عددًا كبيرًا من المؤلفات، تضمنت أرصاده الدقيقة ومقارناته بين التقاويم المعروفة لدى الأمم المختلفة (الهجري، الفارسي، الميلادي، القبطي)، وأوصافه للآلات المستخدمة في عمليات الأرصاد الفلكية وطرق صناعتها. ومن أهم مؤلفات البتاني: كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك، ورسالة تحقيق أقدار الاتصالات، وشرح المقالات الأربع لبطليموس، وكتاب تعديل الكواكب، وكتب ورسائل في علم الجغرافيا، وكتاب الزيج الصابئ أو زيج البتاني.

و"الزيج" هو أهم كتب البتاني العلمية، وضعه عام (٢٨٧هـ-٩٠٠م) على أساس أرصاد قام بها في الرقة وأنطاكية في العام نفسه، متخذًا "زيج الممتحن" ليحيى بن منصور مرجعًا له.

ويعد "الزيج الصابئ" أهم وأصح الأزياج المعروفة التي أثمرتها الحضارة الإسلامية، وسمي بـ"الزيج الصابئ" نظرًا لانتماء البتاني إلى طائفة صابئة حران، الذين عدّهم الرسول ﷺ ضمن أهل الكتاب قبل أن يسلموا.

ويشتمل "الزيج الصابئ" على مقدمة، وسبعة وخمسين فصلًا، ضمّنها البتاني الكثير من أرصاده الفلكية وأفكاره ونظرياته في علم الفلك. وقد ترجم الكتاب إلى اللاتينية أكثر من مرة في القرن الثاني عشر، كما أمر "الفونسو العاشر" في "قشتالة" بنقله إلى الإسبانية، وأطلع عليه كبار الفلكيين الأوربيين ومنهم "كوبرنيك" (Copernicus) في القرن السادس عشر الميلادي.

وفي عام (١٨٩٩م) طبع الزيج الصابئ بـ"روما"، بعد أن حققه "كارلو نللينو" عن النسخة المحفوظة بمكتبة الاسكوريال بإسبانيا. ويضم الكتاب أكثر من ستين موضوعًا أهمها: تقسيم دائرة الفلك وضرب الأجزاء بعضها في بعض وتجذيرها وقسمتها بعضها على بعض، معرفة أقدار أوتار أجزاء الدائرة، مقدار ميل فلك البروج عن فلك معدل النهار وتجزئة هذا الميل، معرفة أقدار ما يطلع من فلك معدل النهار، معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك، معرفة أوقات تحاويل السنين الكائنة عند عودة الشمس إلى الموضع الذي كانت فيه أصلًا، معرفة حركات سائر الكواكب بالرصد ورسم مواضع ما يحتاج إليه منها في الجداول في الطول والعرض.

عرف البتاني قانون تناسب الجيوب، واستخدم معادلات المثلثات الكرية الأساسية. كما أدخل اصطلاح جيب التمام، واستخدم الخطوط المماسة للأقواس، واستعان بها في حساب الأرباع الشمسية، وأطلق عليها اسم "الظل الممدود" الذي يعرف باسم "خط التماس".

البتاني في عيون علماء الغرب

اعترف الفلكي الشهير "إدموند هالي" بدقة أرصاد البتاني، واعترف بذلك أيضًا "كاجوري" في كتابه "في تاريخ

الرياضيات"، كما أشار مؤرخ العلم "جورج سارتون" إلى البتاني بإعجاب شديد باعتباره أعظم الفلكيين المسلمين. واعترف المستشرق الإيطالي "نللينو" أن أرصاد البتاني في الزيج الصابئ، كان لها أعظم الأثر على تطور علم المثلثات الكروية في أوروبا. وقال عنه "جوزيف شاخت" في كتابه "تراث الإسلام": "يعتبر البتاني مبرزًا بين جميع الفلكيين العرب والمسلمين. فقد وضع جداول الزيج الصابئ، وقام بأرصاد عديدة لها جانب كبير من الدقة لدرجة أنه استطاع إثبات حدوث الكسوف الحلقي للشمس". وبعد ذلك بعدة قرون، تمكّن "دنثورن" (Dunthorne) بالاعتماد على أرصاد البتاني من تحديد تسارع القمر في حركته حول الأرض.

وعن البتاني ذكرت دائرة المعارف الإسلامية الإنجليزية: "البتاني فلكي ورياضي عربي مشهور، ويعتبر أحد أعلام رجال الفلك في العالم، ولد في "بتان" بنواحي "حران". وقد أسهم في وضع أساس علم المثلثات الحديثة ووسع نطاقها، واكتشف الكثير من حقائق علم الفلك، ولم يُعلَم أحدٌ في الإسلام بلغ مبلغ البتاني في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركتها. وهو أول من اكتشف "السمت" و"النظير" وحدد نقطتهما في السماء، وعني برصد الكسوف والخسوف، وصحح بعض نتائج بطليموس الإسكندري".

ولمكانة البتاني العلمية، أطلق علماء الفلك الغربيون اسمه على أحد سهول القمر (Albategnius). كما ذكره معجم ماكميلان لعلم الفلك ضمن قائمة مشاهير علم الفلك عبر التاريخ. وفي كتابه "The Spirit of Islam"، أي "روح الإسلام" يقول المفكر الإسلامي الهندي "سيد أمير علي" عن البتاني: "شكلت جداوله الفلكية -المترجمة إلى اللغة اللاتينية- ركائز علم الفلك لقرون عدة، ومع ذلك فالبتاني معروف أكثر في تاريخ الرياضيات باعتباره أول من أدخل الجيب وجيب التمام بدلًا من الوتر في الحسابات الفلكية وحساب المثلثات". ويعتبر كتاب "الزيج الصابئ" واحدًا من أهم مائة كتاب في التراث العربي الإسلامي الكريم، وأهم كتاب فلك عربي إسلامي، لأن القائمة التي عددت المائة كتاب، لم تحو من كتب الفلك العربية الإسلامي شيئًا غيره. ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

كلاليب الشيطان

الدنيا في كُلاَّب الشيطان عالقة،
وكثيرون إلى ظلماته يُجَرّون،
وبنيرانه يحترقون،
والغافلون اللاّعبون،
في لَهْوهم مشغولون...
ولكنَّ بصيص نور في الأفق قد بدا،
لائحًا للنظر،
قدسيَّ المطلع، نورانيَّ المصدر،
عسانا إليه ننظر، وإليه نتشوف..!

* * *

أ.د. عماد الدين خليل*

الصراط

عبر كل موقف يتبين لكل ذي عقل، صدق مقولات كتاب الله ﷻ وسنةِ نبيه ﷺ، وحجتها وإحاطتها، وقدرتها على الامتداد في الزمن والمكان لكي تغطي كلَّ حالة وتعطي جوابها لكل معضلة وتستجيب لكل نداء.

إنها كلماتُ الله ﷻ، تصدر عن علمه المطلق الذي خلق السماوات والأرض وبعث الحياة والإنسان وأحاط بها جميعًا.. فهي تجيء لكي تطابق حاجات النفس والمجتمع في كل زمان ومكان، ولكي تقدم الصيغ المثلى لكل موقف. وما عداها لا يعدو أن يكون مجرد محاولات تخطئ كثيرًا وتصيب قليلا. وهي حتى في حالة إصابتها لا تقدر على تقديم الصيغة الأكثر كمالا.. وتبقى من ثم تحمل عجزها وقصورها ونسبيتها وتقطعها وعدم قدرتها على الامتداد.

إن القرآن الكريم يقولها بوضوح كامل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾(الأنعام:١٥٣).

وتلك هي مهمة الدين في هذه الحياة؛ أن يمنح الإنسان الصراطَ المستقيمَ وأن يشيرَ إليه بكلتا يديه ويسلط عليه الأضواءَ من أجل تمكين الإنسان من الوصول إلى أهدافه من أقرب طريق وأيسر طريق.. ذلك أنه طريق الوفاق مع نواميس الطبيعة وقوانين العالم وسنن الكون.. والوفاق يمنح الإنسان قدرة أكبر، على الفعل والاجتياز والتركيز واختصار حيثيات الزمن والمكان، والانطلاق إلى الأهداف الكبيرة بالعزم الذي تمنحه العقيدة، والطاقة التي يبعثها هذا الانسجام والتناغم مع قوى الوجود على امتداده الفسيح.

ذلك هو الصراطُ المستقيمُ الموصولُ بالله، الممتدُ بين الأرض والسماء، بين الإنسان والكون.. وليس بعد هذا الصراط سوى السبل البشرية النسبية القاصرة القلقة المهزوزة التي لن تصل بالإنسان إلى أهدافه المرتجاة، والتي بسبب من عجزها وارتجاليتها تُحدث دوما انشقاقا بين قدرات الإنسان ومطامحه، وبين سنن العالم ونواميس الكون والوجود.. حيث يؤول الأمر إلى ارتطام محزنٍ بين الطرفين ويؤدي إلى تفتتِ الطاقات، وهدر الإمكانيات وتدميرها، وصدِّ الإنسان عن تحقيق توحده وانسجامه وقدرته على الفعل والإنجاز والعطاء.

وما أكثر ما تفرقت السبل بالأمم والجماعات والشعوب، وما أكثر ما قاد هذا التفرق إلى سفكِ أنهار من الدماء وتجريع البشرية بحرًا من الدموع والمتاعب والمنغصات والآلام.

ولماذا هذا كلُّه والطريقُ واضحٌ.. بيّنٌ.. هناك.. يتمثل بصراط الله المستقيم؟

ويقينًا فإن اليوم الذي ستطبق فيه التجربةُ المُرَّة على أعناق بني آدم، وترغمهم على أن يرجعوا إلى الصراط سيجيء.. يقينًا سيجيء..

فمن خلال التجربة التي تكشف الزيفَ من الحقيقةِ، وتفرز الذهبَ من الترابِ سيتبين صدقُ مقولات القرآن، وسينضوي إليها الإنسان المتعبُ، الممزقُ، المكدود في يوم قريب أو بعيد. وصدق الله العظيم القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣).

لقد ظهر الفساد في البّر والبحر بما كسبت أيدي الناس عبر تاريخهم المترع بالمرارة والشقاء والتعاسةِ والأحزان، ليذيقَهم الله الثمار المُرّة لبعض الذي عملوا لعلهم يرجعون.

وسيرجعون يقينًا، لأنهم لن يجدوا غير الإسلام من يعصمهم من الغرق في بحر الفسادِ الكبير، وينقذهم من خضمّه المخيف العميق. ■

---

* كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

أ.د. حسن الأمراني*

بلبلٌ ووَرْدة

البلبـلُ الحيْـرانُ طـال عَناؤه ... مـن بعدما مـلأ الوجـودَ غِناؤه
أزرَى بـه طـول البعـاد وإنّمـا ... قـرب الحبيب دواؤه وشـفاؤه
حبست يدُ الصيّاد طِيبَ نشيده ... ظلمًـا، فغـاض بهـاؤه ورُواؤه
والـوردُ كـفَّ عبيـرَه لمّـا رأى ... صوتَ الحبيبِ ذَوَى، وغاب نداؤه
قلبان مؤتلفـان ضمّهما الجَوَى ... زمنًـا ولفّهُمـا هنـاك رداؤه
والغابـة الخضراء كانـتْ ملعبًا ... وجـهُ الصباحة أرضه وسـماؤه
وهمـا بـه يتنعمـانِ فـلا ترى ... ذئبًـا ينغّـص ما يطيـب عواؤه
قد عاهـدا الرّحمـنَ ألا ينقضا ... عهْـد المحبّـة أو يُكَـدّر ماؤهُ
شهدتْ طيورُ الغابِ ميثاقَ الهوى ... وتقبّلتـه أُسُـودُه وظِبـاؤه
لم تشـهد الغابـاتُ أبْهى منظرًا ... ممّـا يخـطّ عبيرُهـا ودعـاؤه
فـإذا الحمائـم والنسـور توائمٌ ... والغـاب طـاب زئيـرُه وثغاؤه
وإذا الجميـع أحبّـةٌ، لا فرقـةٌ ... سـرّا تؤجّـج أمرَهـا أعـداؤه

* * *

مـا كان أطيبهـا مُنىً معْسـولةً ... للعاشـقين تهدّلـت أفياؤهـا
الوردة الولهى بهـا (عطّارها)(**) ... والبلبل الشـادي بها (ميلاؤها)
والطّيْـر صافّـاتٌ تُسَـبّحُ ربّها ... فتفيـضُ مـن خيراتـه أهراؤها
أكْـرِمْ بهـا نُعْمى تـرفّ ظلالُها ... فبـكلّ نُعْمى تُفْتـدى نعماؤها
الحـقّ معشـوقٌ، وعاشـقُ بابه ... طَـرّاقُ ليْـلاتٍ بهـا مشّـاؤها

* * *

لكـنّ صيّـادًا أتـى متربِّصًـا ... لـم يُرضِـهِ جمْعٌ يفيـض إخاؤه
قد جـاء من خلف البحارِ يقودهُ ... حقـدٌ تَوَقّـدَ شـرُّه وبـلاؤهُ
حشَد الحشودَ مزمجرًا: من لم يكنْ ... معنـا، فحـقٌّ أن تـراق دماؤه
أأعيـشُ في ضنْـكٍ وينْعَم بلبلٌ ... تقضـي بغيـر شـريعتي أبناؤه؟
هلْ سـيّدٌ في الكَوْنِ غيري آمِرٌ؟ ... أنا سـيّدُ الأكـوانِ جـلّ ثناؤه
من قال للمسـتضعفين تذمّروا؟ ... النّسْـرُ يغْضـبُ أن يضام هواؤه
سـأُحرّقُ الغاباتِ، أجعلها لظىً ... لـنْ تسـتريحَ بظلّهـا آلاؤه

النفطُ مهمازي إذا احتدم الوغى ... لا الصّــرح يُســتبْقَى ولا بنّاؤهُ
والقحْطُ جندي، أستذلّ به الورى ... لــن ينفــع الليثَ الأســيرَ إباؤه
لن يهــدم الغابــاتِ إلا جذُعها ... والســدّ يغــرق إن تَفجَّــر ماؤه
البلبــل الحيــرانُ أصبــح نائيا ... عنه الحبيب، فهل يحين لقاؤه؟
أم هــل تُعيد العهدَ أزمنةُ اللظى؟ ... ويعــود للغاب الجميــل رواؤه؟

* * *

وتنادت الأطْيارُ: هلْ من مُخْرِجٍ؟ ... والقــولُ ينظمُ عِقْــدَه فصحاؤها
يا هُدْهُد البشــرى، ألا من يقْظةٍ ... تَأْتِيكَ عن أهــل الحِجا أنْباؤها؟
قال الســميرغُ والغيوبُ تحوطه ... فكأنّمــا أصــداؤه أصداؤهــا:
يــا غُمّــةً لــو أنّنــا قُمنــا لها ... بمحبّــةٍ لتكشّــفتْ ظلْماؤهــا
وإذا تفرّقــت القُلــوبُ مــودّةً ... لم يَثْنِها عن جهلهــا حُكَماؤها
يــا غابــةً آلامُهــا مبســوطةٌ ... بين المحيطيــن ارتمتْ أرجاؤها
سيعود بلبلكِ الشريدُ إلى الحِمى ... وإن اســتطالَ خريفُها وشــتاؤها
ســيعود بُلْبُلُك الشّــريدُ مُغَرّدًا ... ويَــرفُّ مــن ألْحانــهِ طلقاؤهــا
وتعــودُ وردتنــا الجميلــةُ طيبُها ... متضــوّعٌ، ونديّــةٌ أنداؤهــا
هــي أمّةُ الطّير اســتفاقت للعُلا ... لا صَقْرهــا أغضــى ولا ببغاؤها
شــعْبٌ تنــادوا مصبحيــنَ أعزّةً ... يبغي الحيــاة رجالها ونســاؤها
فسّــرْ لنا الرؤيــا فأنت حكيمها ... وعليمهــا وإليــك آل دهاؤهــا
الــوردة المعطارُ شــرعةُ أحمدٍ ... وعبيرها في الكائنــاتِ ضياؤها
والبلبــلُ المأســورُ أمّــة أحمدٍ ... ولــواؤه فــي العالميــن لواؤها
الــوردة المعطــار روحٌ ســابحٌ ... والعندليــبُ لباســها وغطاؤهــا
والــوردة المعطــار ســرّ بقائــه ... والبلبــل المــرآة منــه جلاؤها
والآثــمُ الصيّــاد حصّنَ ســجنَهُ ... أســوارهُ بلــغ المــدى أنباؤهــا
لكنّ هذا الســور ليــس مهدّما ... إلا إذا الزفــراتُ حــان جلاؤها
فليصبح الجرحُ المضمّخ مهرها ... ولكلّ عِــرسٍ في الوجود حباؤها
أرســلْ أنينك أيها الشادي فإنْ ... سالتْ دماكَ ستســتعاد ذِماؤها
ولتمــلأ الليــلَ المحصّــنَ آهةٌ ... مــنْ وردةٍ وليســتمرَّ بكاؤهــا
فالشّمْسُ تكشفُ بعْد ليلٍ سرّها ... فيعــمّ وجــهَ العالميــن ضياؤها

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.

(**) عطارها: فريد الدين العطار. ميلاؤها: عزة الميلاء.

والبلبل في الأنشودة الهندية مؤنث والورد مذكر.

د. مجدي سعيد*

أزمة الإصلاح الإسلامي

المطالع للمشهد العربي العام لابد وأن يدرك استقراءًا أن جهود الإصلاح في العالم العربي باتت في أزمة، تعاني انسدادًا في الأفق، وإحباطًا متكررًا في الجهود، مما جعل الحالة العامة لبلدان العالم العربي، تراوح مكانها إن لم تكن تتراجع إلى الخلف. ونحن نعني هنا، جهود الإصلاح المنطلقة من رؤى إسلامية ووطنية صرفة، والتي تقوم بها في الأغلب حركات أو مؤسسات أو أفراد متفرقين. فما هي أسباب تلك الحالة؟ وما هي سبل الخروج منها؟

أسباب أزمة الإصلاح

ما أطرحه من أسباب يمكن أن تعد في حد ذاتها، مظاهر وتجليات يمكن أن نجد أسبابًا لها بدورها، وتلكم طبيعة الظاهرة الاجتماعية التي يصعب تبسيطها وتسطيحها. وأسباب الأزمة من وجهة نظري تتمثل فيما يلي:

أ- وقوع حركات وجهود الإصلاح أسيرة لرد الفعل: فحركات الإصلاح في العالم العربي، هي أشبه بمُلاكم أوقعه خصمه في زاوية من الحلبة وأفاض له في اللكمات، فما كان من ذلك المُلاكم المحصور إلا أن رد بلكمة هنا ولكمة هناك، لكنه لم يستطع أبدًا أن يُخرج نفسه من وضعية المحصور في الركن، المحكوم عليه بالرد دائمًا لا المبادرة بالفعل. والمبادرة والمبادأة تأتي من قدرتها على فرض استراتيجيتها على الخصم وليس العكس.

ب- وقوع تلك الحركات والجهود أسيرة للتفكير المثالي، سواء في ذلك استراتيجيات الإصلاح التي تتبناها، أو فقه الواقع الذي تبني عليه تلك الاستراتيجيات، والذي لا يقدّر بشكل صحيح مقدار القوة الذاتية إزاء القوى الداخلية والخارجية المناوئة لذلك المشروع الإصلاحي، ولا يتخذ التدابير اللازمة التي يقتضيها ذلك الفقه الواقعي، مما ينتج عنه الاندفاع في مشروعاتهم الإصلاحية مصطدمين بالواقع المناوئ، معتبرين أن المعوّقات التي يتعرض لها المشروع هي أمر طبيعي، وأن المعاناة التي يعيشها أفرادها هي "ضريبة الإصلاح"، وكأن وضع الاستراتيجيات الملائمة لنجاح

عمليات الإصلاح، وصولا إلى الرسالة الأساسية للإصلاح، واتخاذ التدابير لتجنب الدخول في معارك جانبية تستنزف القوى قبل الأوان، أمرًا غير مرغوب فيه، أي كأن هناك عشقًا "للمازوخية"، أي تعذيب الذات، لا بل وعشقًا "للسادية" وهي عشق تعذيب الشعوب، والتي تذبح القوى المفسدة والمستبدة آمالَها وأحلامها في النهضة والاستقلال الحقيقي، بدعوى تعرض مراكزها للخطر الدائم والداهم من حركات الإصلاح تلك.

جـ- وقوع تلك الحركات والجهود أسيرة لتقديس الوسائل التي تتبناها، وإن كانت تلك الحركات، لا تقول بالقدسية صراحة، بل إن أدبياتها ربما تنفي تلك القداسة، إلا أن الممارسة العملية، ورد الفعل العنيف على أي انتقاد يطال هذه الوسائل -ولو بدافع النصح- يقول عكس ذلك، مع أن الأصل أن الغايات هي الثوابت، وأن الوسائل يمكن أن تكون من المتغيرات بتغير المكان والزمان والأحوال، ما لم تعارض نصًا ولا مصلحة عامة، وأن مَن ابتدعوا تلك الوسائل حين ابتدعوها، كانوا مجتهدين وفق رؤيتهم لمتطلبات الواقع وإصلاحه. فلابد إذن حينما تتغير الأحوال وتتبدل، أن ننظر في وسائلنا نظر المجتهد.

د- تبعثر جهود الإصلاح خارج الكتل الأساسية: فالمنطقة تشهد حالة من الحراك والمبادرات -الشبابية بالأساس- في جميع مجالات الحياة، خاصة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وهي مبادرات وحالة حراك، تأتي في الأغلب من خارج الكتل الإصلاحية أو من الراشحين أو المتساقطين منها. وهي المبادرات والحالة الحراكية التي ينبغي إذا كان لنا فقه لما نعيشه، أن نعظم منها حتى تصير أنهارًا تحمل مياهها سفن الإصلاح إلى المصب، فهذه هي الاستراتيجية، وهذا هو الأمل. لكن المرء يتساءل؛ أنى لنقاط الماء المبعثرة والتائهة -أحيانًا- تلك، أن تصب -في نهاية الأمر- في النهر العام للإصلاح والتنمية والنهضة، كي يروي ظمأ حياتنا العطشى التي جفت فيها الحلوق من لظى الإفساد والاستبداد الذي نعيشه.

خارطة طريق للخروج

وحتى لا يظل حديثنا لعنا للظلام، نقدًا أو جلدًا للذات الإصلاحية، دون أن نوقد شمعة في الطريق، نقول بأنه يجب على الساعين للإصلاح أن:

أ- يدرسوا الواقع بتحدياته دراسة القوي الأمين، دراسة لا تبالغ في قوة الذات حتى تصاب بالزهو، ولا تتغافل عن تحديات الواقع وقواه المناوئة للإصلاح داخليًا وخارجيًا، حتى لا تصاب الذات بالاستهتار بالعدو الجاثم أو المتربص؛ ودراسة لا تبالغ في تقدير تلك القوى المناوئة بما يصيب الناس باليأس والإحباط.

ب- يدرسوا تجارب الإصلاح الجزئي منها والكلي، والعالم مليء بها.. وتجارب ذلك الإصلاح (الإسلامي) ماثلة حولنا بأشكالها الثورية (الإيرانية) والانقلابية (السودانية) والديمقراطية (التركية)، والمقاومة (اللبنانية والفلسطينية)، بما يسمح باستخلاص الدروس المستفادة من حسن قراءة الواقع. هذا على المستوى السياسي، أما على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتنموية، فإن بطون المجتمعات في بلادنا وفي العالم شرقه وغربه وشماله وجنوبه، ملآنة بالدرر من الحكمة التي يمكن لمن أراد أن يتلمسها.

جـ- يضعوا استراتيجيات جديدة للعمل، يراعى فيها فقه الواقع بتحدياته وعطاءاته، استراتيجيات لا تجعل منا ذبائح كلما قامت على قوائمها "عرقبها" الجزارون بسكين باردة؛ استراتيجيات تهدف إلى تعظيم النهر واتساعه وعمقه خارج سفن الإصلاح.

د- ينشروا الوعي ويلملموا المبعثر من حبات الماء المتناثرة من الفعاليات والمبادرات الإصلاحية المبعثرة، حتى تصنع نهيرات صغيرة لا يُحدث صوتها جلبة ولا ضجيجًا، حتى تجد طريقها إلى نهر التنمية والنهضة والاستقلال الحقيقي لأمتنا.

هـ- يدركوا أن لحياتنا آلاف الجنبات، التي تحتاج لأن تتوزع الجهود عليها بقدر، فلا تترك جنبًا ولا تزر ثغرة تهدم ما يحاولون بناءه على مدار السنين والعقود القادمة، ولكن لتلك الجنبات سلمًا للأولويات وأحجامًا متفاوتة يجب أن تراعى.

و- يتعلموا فقه الأولويات والموازنات، والمصالح والمفاسد والمقاصد وتنزيل ذلك الفقه مزجًا مع فقه الواقع، ليصنعا معًا تدبيرًا وتدبرًا قبل وضع الأقدام في مواضع تعيد المسيرة إلى أولها، ولا تصل بنا إلى غايات الأمة مطلقًا وإن طالت السنين فالمتربصون كثر وحيلهم لا تنفد.

ز- يتلمسوا طريق العمل تدرجًا وصبرًا، فلم تُخلق الدنيا في ساعة، ولن تتغير في ساعة، فالزمن جزء من العلاج كما يقولون. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

د. سلمان العودة*

نقد الذات

كان يسير في مركبته بعكس الاتجاه، ويشاهد أرتال السيارات إلى جواره ماضية في طريقها. وحين التقط صوت الجهاز اللاسلكي يقول فيه أحد رجال المرور للآخر: "هنا سيارة تسير عكس الاتجاه"، جعل يقلّب رأسه ويتأفف قائلا: "ليتها سيارة واحدة، كل السيارات سائرة عكس الاتجاه".

حين حكيتُ هذه الطرفة لابنتي، عززتها بقصة الرجل الذي اشتكى للطبيب أنّ زوجته ضعيفة السمع. فطلب إليه الدكتور أن يخاطبها من بعيد، ثم يقترب شيئًا فشيئًا حتى يعرف مقدار الضعف في سمعها.

خاطبها سائلا عن وجبة العشاء ولم يظفر بجواب، فاقترب وخاطبها أخرى فثالثة...

وأخيرًا وقف على رأسها وسألها عن وجبة العشاء فردت قائلة: "خمس مرات أقول لك: دجاج بالفرن"، لم يخطر في باله أن الضعف في أذنه هو!

حين يتصل بك صديق ويحدث تشويش في الخط، يتصرف تلقائيًا وكأن الخلل في جهازك، أو المشكلة في الأبراج القريبة منك. ولا شك أننا سنكون سعداء حين نشرح معاناتنا لأحد، فيبدأ في التعاطف معنا وإلقاء اللوم على الآخرين، بينما نعدّ من الخذلان أن يحاول تمرير رسالة هادئة مفادها أننا -ربما- نتحمل بعض المسؤولية، وأن الحل يبدأ من عندنا؛ وحتى حينما يتلو علينا القرآن: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(آل عمران:١٦٥)، سنقوم بإيضاح المعنى بأن الخلل في الناس الذين يشتركون معنا في الانتساب للإسلام أو للوطن، وليس معناه أننا شخصيًا شركاء في التبعة والمسؤولية.

يطرب الناس لمتحدث أو كاتب يهاجم الخصوم والأعداء، ويشتمهم ويفضح ألاعيبهم وخططهم وهو محق فعلًا. فمن شأن العداوة أن تفرز مثل هذه الخطط والحيل والألاعيب.

لكننا سنشيح بوجوهنا ونتمعر ونزمُّ شفاهنا، حين نجد الصوت يتعالى في نقد ممارساتنا، أو تحليل شخصياتنا، أو تفنيد بعض عاداتنا السيئة المستحكمة التي أصبحت جزءًا رئيسًا في طرائق تفكيرنا وسلوكنا الفردي، وتعاملنا الأسري، ونظامنا الاجتماعي.

سنسير خطوات يسيرة، ونتجرع رشفة مُرّة ونتظاهر بالروح الرياضية، ونعلن أننا نقبل النقد بصدر رحب، وأن الذي ينتقدنا خير من الذي يمدحنا.. لننكفئ بعد ذلك، ونلتف على الموضوع، مستنكرين حالة الإفراط في النقد، وأننا أصبحنا "نجلد" ذواتنا!..

مصطلح "جلد الذات" صحيح، ولكننا نستخدمه أحيانًا في غير محله، نستخدمه لتعثير المشرط الذي يتخلل جراحنا، ويضعنا أمام أخطائنا وعيوبنا وجهًا لوجه.

الذي ينتقد الأعداء يتحدث عن قضية مشتركة مُجمَعٍ عليها. فالجميع يصفق له ويثني عليه، لأنه يتحدث في منطقة آمنة لا خوف فيها، ولكن ربما أفرط وبالغ حين صوّر إخفاقاتنا وكأنها من صنع أعدائنا ولا يد لنا فيها.

أما الذي يكشف عيوبنا أو يحاول -ولو لم يحالفه التوفيق- فهو يضع يده على موطن العلة. وما كانت سهام الأعداء لتضرنا لولا أننا أتينا من قِبَل أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(آل عمران:١٢٠).

الواقع الذي نعيشه أفرادًا وأسرًا وجماعات ومجتمعات وحكومات، هو الشيء الذي نعبّر عنه بـ"التخلّف"، فلماذا نتلبسه ونتشربه ونتعصب له ونحامي دونه، ونعتبر أن من يريد فصلنا عنه مؤذيًا وجارحًا ومتهجمًا؟!

دعني أقول.. ما الذي يجعلنا أحيانًا نقول نقدًا كهذا، ونهاجم أمراضنا وعللنا بقوة وشجاعة، ثم ننصرف وكأننا لسنا جزءًا من هذا الواقع المنقود.. هل نقدي يعني أنني بمنجاة ومعزل عن هذه الآثام الشائعة؟ عليّ حين أنتقد، أنْ أدرك أن النقد يتجه إليّ شخصيًا مثلما يتجه للآخرين، وإلا فسيكون بغير معنى إذا كانت محصّلته أنني أنتقد لأثبت تفوقي على الآخرين وسلامتي من معاطبهم.

النقد ليس تشفيًا ولا تصفية حساب، لكنه طريق إلى الفهم والإصلاح والتدارك. وحين نكون مخلصين فيه، سندرك أن الحق هو أن نبدأ بأنفسنا ولا نجعلها استثناء، ولا نتعالى عن هذا الواقع وكأننا أوصياء عليه من خارجه.

النقد ليس تشفيًا ولا تصفية حساب، لكنه طريق إلى الفهم والإصلاح والتدارك. وحين نكون مخلصين فيه، سندرك أن الحق هو أن نبدأ بأنفسنا ولا نجعلها استثناء، ولا نتعالى عن هذا الواقع وكأننا أوصياء عليه من خارجه: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت:٣٥). ■

(*) عالم ومفكر وداعية / المملكة العربية السعودية.

صابر عبد الفتاح المشرفي*

أ.د. وهبة الزحيلي

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي

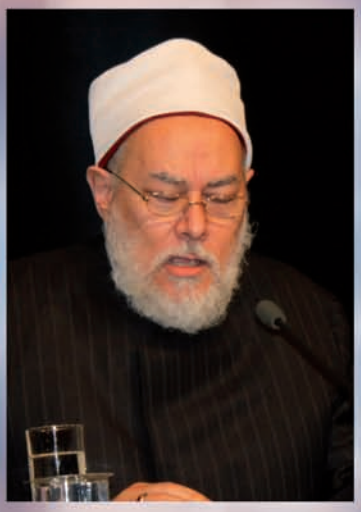

أ.د. علي جمعة

أ.د. أحمد عبادي

هَدْي خير العباد

أول مؤتمر دولي لـ"حراء" في إسطنبول

في يومين من أيام إسطنبول المشمسة الصحوة، ووسط عبق التاريخ المجيد الذي أوحى به المكان "مركز الفرات الثقافي" بالقسم الأوروبي من إسطنبول، وفي حضور لافت لكوكبة عظيمة هائلة من علماء الأمة الإسلامية من تركيا ومن خارجها، وبمتابعة كثيفة لطلاب وطالبات العلم، ضاق عنها المكان فاضطروا إلى إكمال المتابعة عبر شاشات كبيرة خارج القاعات، أطلَّ الحبيب المصطفى ﷺ بهديه من قلب "حراء" التركية الناطقة بلغة أفصح العرب ليبعث في القلوب والأرواح "أملاً جديدًا"، في أن القرن الحالي والقرون القادمة ستولي وجهها شطر هَدْي خير العباد ﷺ.

ففي يومي السبت والأحد الموافقين للتاسع والعاشر من شهر أكتوبر/تشرين الأول لعام ٢٠١٠، جرت فعاليات مؤتمر دولي عنوانه "هَدْي خير العباد" بتنظيم مشترك بين مجلتي "حراء" و"يني أوميت" (الأمل الجديد) من قلب إسطنبول العاصمة التاريخية لتركيا، دعتا إليه علماء ومفكرين من أعلام الفكر الإسلامي من تركيا وخارجها منهم: مفتي الديار المصرية الأستاذ الدكتور علي جمعة، ورئيس الشؤون الدينية في تركيا الأستاذ الدكتور علي بارداك أوغلو، والأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، والأستاذ الدكتور أحمد عبادي الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء بالمملكة المغربية.

في هذا الجو المعطر بأريج النفحات النبوية، افتتح القارئ التركي ذو الصوت الشجي "رضا كوناي"، فعاليات المؤتمر بأواخر سورة الفتح وأوائل سورة الحجرات، معلنًا من خلال البيان القرآني المعجز أن محمدًا رسول الله ﷺ وأن الله أرسله ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ﴾ وأنه لا تقديم ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللهِ﴾.

وفي هذا الإطار الروحاني المشرق، حيّا الدكتور "أركون جابان" رئيس تحرير مجلة "يني أوميت" جموع الحاضرين ورحب بهم في بلدهم الثاني تركيا. وأوضح في كلمته؛ أن المجلة قد نظمت في الصيف الماضي مؤتمرًا بعنوان: "القرآن الكريم والحقائق العلمية" دعت إليه لفيفًا من علماء الأمة الإسلامية ومفكريها، ثم يأتي هذا المؤتمر اليوم ليمثل نوعًا من التكامل مع المؤتمر السابق، لأن هَدْي الحبيب المصطفى ﷺ كان التفسير الحي لكتاب الله ﷻ، وحياته التي عاشها بأحداثها وحوادثها؛ نموذجًا مثاليًا تستطيع البشرية أن تجد فيه العلاج الناجع لأدوائها، والحل الأمثل لمعضلاتها إلى أن تقوم الساعة.

وبفصاحته المعهودة وأدائه العذب الرائق، استهل المشرف العام لمجلة "حراء" السيد "نوزاد صواش" كلمته متمثلاً بأبيات

أ.د. علي برداك أوغلو

أ.د. خير الدين كارامان

د. أركون جابان

نوزاد صواش

شعرية مشهورة تنم عن براعة الاستهلال، حيث وقعت موقعًا حسنًا استعذبتها الآذان وطابت بها النفوس:

لله قـوم إذا حلـوا بمنزلة** حل السـرورُ وسـار الجودُ إن سـاروا

تحيـا بكم كلُ أرضٍ تنزلون بها** كأنهم في سـماء الأرض أقمارُ

لا أوحش الله ربعًا من زيارتكم** يا من لكم في الحشا والقلب تذكارُ

ثـم حيّا الحضور من تركيـا ومن جميع أنحاء العالم وزفّ إليهم بشـرى صدور "حراء" كل شهرين من أوائل العام القادم ٢٠١١ للميـلاد. والجديـر بالذكـر أن هذه هي المـرة الأولى التـي تعقد فيها "حـراء" مؤتمرًا لها في إسـطنبول، بالرغم من تنظيمهـا لمؤتمـرات تعريفيـة كثيرة فـي العديد مـن العواصم العربية والإسلامية.

ثم توالت الكلمات الافتتاحية من كلٍّ من الأستاذ الدكتور "راشد كوجوك" عميد كلية الإلهيات بجامعة مرمرة، والأستاذ الدكتور "شـرف الدين كولجـوك" الرئيس الثاني لوقف الديانة التركية، والأستاذ الدكتور "علي بارداك أوغلو" رئيس الشؤون الدينيـة فـي تركيـا، وفضيلة الأسـتاذ الدكتور "أحمـد عبادي" الأميـن العام للرابطـة المحمدية للعلماء بالمملكـة المغربية، الـذي افتتـح كلمته بصلاة خاشـعة على الحبيـب المصطفى، ومناجـاة خاضعة للمولى ﷻ وجلت منها القلوب فظهر أثرها فـي الجفـون، وأوضـح فـي كلمته أن النبي بشـرٌ عبـدٌ لله مثل البشـر، غير أنه اصطُفي بعلم الله ليوحى إليه، وأن التأسـي في القرآن المجيد يتم بالنظر إلى النبي المثال فبالنظر إلى الحال ثم العمل على الانتقال من الحال إلى المثال، ثم أردف "أن النبي ﷺ هو الوحدة القياسـية الشـاهدة التي تمثل حالة السـواء في المجال الإنساني، والتي بالنظر الواعي إليها، يتم التعرف على الاختلالات التي في هذا المجال جمعًا وإفرادًا. بذلك يحصل إمكان العمل على ردها إلى حالة السواء.. وتلك نعمة من الله جلَّـى.. حتـى إذا تمت إفادة الأمة من النبـي ﷺ، فإنها بدورها تصبح وحدة قياسـية علـى الصعيد الاجتماعـي والحضاري، يمكّـن التعرّفُ عليهـا من التعرّف علـى الاختلالات في هذه الأصعـدة، ومـن ثم يمكـن التعرف علـى ما يلزم مـن العمل لردها إلى حالة السواء.

كمـا كان لافتًـا للنظر، الحضور القلبي والروحي للأسـتاذ العلامـة "محمـد فتـح الله كولن" من خلال كلمتـه التي ألقاها نيابـة عنـه مقـدم البرنامـج. فقـد عبـر عـن أسـفه لغيابـه عن الحضـور، وقـدم خالص شـكره لـكل رجـال العلـم والفكر والخدمة الإيمانية، وكل من أسـهم في عقد المجلس العلمي والعرفانـي الـذي يتـم فيـه تنـاول هَـدْي روح سـيد الأنـام، ومفخرة الإنسـانية والمرشـد الأكمـل وفريد الكـون والزمان عليـه أكمـل التحايا. وأوصـى بوجـوب العودة إلـى المنابع، والتغـذي مـن مصادرنـا الذاتية التـي يمثلها الكتاب والسـنة، حيـث أحـرزت الأمة فـي تاريخها موقعًا تغبـط عليه فصارت قـدوة للأمـم في ظل تمسـكها بهذا النظام الإلهـي خاصة في جيـل الصحابـة. ونبـه إلى خطـورة الابتعاد عن تلـك المنابع أو تقديمهما بشـكل لا يليق بسـموهما الروحـي والأخلاقي.

ثـم اسـتعرض فضيلـة الإمـام العلامـة الأسـتاذ الدكتـور "علـي جمعة" مفتي الديار المصرية فـي المحاضرة الافتتاحية "هـدي النبـي في التعايـش مع الآخر"، حيـث أوضح أن حياة المسـلمين في عهد النبـي ﷺ اكتنفتها أربع مراحل هي: العهد المكـي، والعهد الحبشـي، والعهد الأول والثانـي في المدينة

المنـورة، وأن بقـاء المسـلم في أي مجتمع مّـا، لا يخرج عن هذه النماذج الأربعة، ومن ثم ينبغي علينا أن نسـتفيد اسـتفادة تامـة من كل هذه النمـاذج، باعتبار أنها التصرف الذي ارتضاه الله ﷻ كتطبيـق معصـوم لمـراده فـي هـذه الأرض؛ كمـا أكد على أن النبي ﷺ اسـتطاع التعايش مع الآخرين رغم اختلاف ظروفهم وأحوالهم وعقائدهم، وأن على المسـلمين اسـتلهام الدروس والعبر من حياته، والاستفادة من نظرته إلى الآخرين والأحداث، وإدارته للدولة وحياته التعبدية. ومع أن الموضوع في إطاره فقهي يغلب عليه طابع الاسـتدلال النقلي والعقلي، إلا أن الحضـور قـد رصدوا أكثـر من مرة حبًّا جارفًا وعشـقًا والهًا لقدوة السـالكين وقـرة عين العارفين الحبيب المصطفى ﷺ فضَحـه لؤلؤ رطب ترقرق في مآقي فضيلته، فأذكرني ذلك قول الإمام الشـافعي: فقيهًا وصوفيًا فكـن ليسَ واحدًا... وما ذلك على فضيلته بغريب.

ثم بيّن الأستاذ الدكتور "خير الدين كارامان" في المحاضرة الافتتاحية الثانية، أن موقف أهل السنة والجماعة الذين يشكلون العمـود الفقـري للمسـلمين، والذين يمثلون الإسـلام بوجهه الصحيـح، يظهـر -بحـقٍ- مرونتهم فـي إقبالهم علـى الحوار مـع المجموعـات الإسـلامية الأخـرى ومع غير المسـلمين، أو إقبالهـم علـى الحوار مع الإنسـانية جمعاء. كمـا أكد على ضرورة قراءة السيرة النبوية مع الأسرة يوميًّا ولو لمدة قصيرة.

ثم تتابعت الجلسـات في اليوم الأول، كل ينهل من معين بحـر النبـوة الذي لا ينضب على حسـب طاقته؛ فقد تم تناول جهـوده ﷺ فـي تثبيت دعائـم عقيدة التوحيد، وفقـه القدر من منظـور النبـوة، ثـم هديـه فـي الحكم علـى اعتقـاد الآخرين ووصمهـم بالكفر والإضـلال وبيان منهجـه المعتدل في هذا الجانـب. كما تم تنـاول هديه في العلاقة بيـن الفرد والدولة، وهديه في التعامل مع أصحاب الديانات والثقافات الأخرى.

وهكـذا انتهت جلسـات اليـوم الأول في الـروض الأنف للحبيـب ﷺ مـع شـعور غامر؛ بـأن روح الحبيـب المصطفى تضـيء الزمـان والمـكان، وجـال بالأذهـان طيـف خيالـه، وتشـخص للأبصار جمال صورته، كل على حسـب اسـتعداد روحه وصفاء قلبه، فمنّا من رآه أبًا يربت بيدٍ حانيةٍ على ظهره، ومنّـا من رآه رئيسًـا حاكمًا يسـوس رعيته بالعدل والمسـاواة ويتعامل مع الآخرين بالحكمة والسياسة، ومنّا من رآه مرشدًا هاديًـا يأخـذ بأيدينـا من مهـاوي الضلال وأودية التخبط إلى جـادة الطريـق، ومنّا من رآه حكيمًا يحل أعقد المسـتعصيات في فترة وجيزة، ويقدم وصفة علاج ناجعة لمريض كاد يشرف علـى الموت فأنقذه بعدما أعيا الأطباء واستيأسـوا من حالته، ومنّا من رآه كل ذلك أو يزيد.

وفـي مسـاء تلـك الليلة عقـد المنظمون أمسـية حاشـدة، ضمـت نخبـة هائلـة مـن أسـاتذة وعمـداء كليـات الإلهيات وشـيوخ وأئمـة المسـاجد الكبـرى بتركيـا وبعـض الضيوف العـرب.. تخللـت تلـك الأمسـية، أحاديث حـول أهمية عقد ذلك المؤتمر بإسـطنبول ودلالات ذلـك، والدور الذي تلعبه تركيـا فـي تحقيق عالمية رسـالة الحبيب المصطفى ﷺ ونشـر حقائـق الإيمـان والقـرآن وتبليـغ النـور المحمـدي الأعظم، إلى كل مكان تشـرق عليه الشـمس أو تغرب، من خلال فتح المدارس وإنشاء المؤسسات التربوية، وتقديم صورة حضارية مشـرقة عن الإسـلام وأهلـه. كما عبر المتحدثـون من عمداء الكليـات، عن سـعادتهم لالتقائهم بهـذه الكوكبة العظيمة من علماء الأمة الإسـلامية، وشـكروا المنظمين علـى إتاحة هذه الفرصـة للتواصـل معهم عن قـرب.. وآب الجميع إلى مأواه مغتبطًا بهذه المناسبة السعيدة.

ثـم اسـتأنف الجميع في صبيحـة اليوم التالـي التوافد إلى مائـدة الرحمن فـي ضيافة الحبيب المصطفـى ﷺ، حيث أطر الجلسـة الأولـى فيها فضيلة الأسـتاذ الدكتور أحمـد عبادي، وقـدم الأسـتاذين العالميـن الجليلين فضيلة الأسـتاذ الدكتور محمد سـعيد رمضان البوطي، وفضيلة الأسـتاذ الدكتور وهبة الزحيلي. وبعقلٍ نقي وقلبٍ تقي أفاد فضيلة الدكتور البوطي، أن الأمـة باختلاف مذاهبها وفرقها واختلاف عصورها، متفقة على "وجوب الاتباع وتجنب الابتداع"، وإنما وجه الاختلاف الذي تسرب بينهم يدور حول تفسير الاتباع وضوابطه، وحول معنـى الابتـداع والمـراد به والـذي يقوم علـى دلالات لغوية وأسـس بيانية لم تكن كلها محل اتفاق من علماء العربية؛ مما انبثق عنه نشـوء الفرق الإسـلامية والمذاهـب الفقهية، وطبقا لهذا الأسـاس ومع انتفاء أي دور للعصبية النفسية أو العوامل الخارجيـة فـي هـذه الاجتهـادات لا يمكـن لتلـك الفـرق أو المذاهب المختلفة أن تفقد هويتها الإسلامية، أو أن ينظر إليها على أنها تمارس في اجتهاداتها نوعًا من الشـذوذ. بخلاف ما لو استدعى الاجتهاد الجانح عن أهل السنة والجماعة خروجًا صريحًـا علـى ما ينص عليه القرآن، بعبـارة لا تحتمل التأويل أو علـى ما تواتر من حديث رسـول الله ﷺ بشـكل يسـتعصى على التأويل، فضلاً عما يكمن وراءه من عصبية ذاتية أو دعم

خارجي، وضرب أمثلة متنوعة لكلا الاجتهادين.

وبحماسته المعهودة وعقله الموسوعي نحى الدكتور الزحيلي باللائمة على أعداء الإسلام من الخارج والداخل، الذين يحاولون التخلص من السنة النبوية الشريفة، إما بإنكارها بالكلية أو بالتجزئة فيها، بعد ما يئسوا من التشكيك في القرآن الكريم لإعجازه، وذلك في عرضه الذي قدمه بعنوان "السنة النبوية الشريفة بين التجزئة والشمول". ثم أفاض في بيان حجية السنة النبوية الشريفة ومكانتها من التشريع الإسلامي، وساق العديد من الحجج والبراهين النقلية والعقلية التي لا تقبل النقض على وجوب التمسك بسنة خير العباد، وأوضح عددًا من أوجه خدمة السنة النبوية المباركة لكتاب الله ﷻ؛ ليكون في ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم توالت الجلسات تتناول كل محاضرة فيها غصنًا من الدوحة النبوية الغناء، وتبرز جوانب العظمة في الدعوة وصاحبها الذي تمثلت في شخصيته ﷺ كل جوانب الحياة. حتى إذا أناخ المؤتمر راحلته في الجلسة الختامية، داخل الجميع حزن شفيف؛ لسرعة انقضاء هذين اليومين القدسيين المباركين، وبكى من كان يمنعه الحياء من البكاء، ووقر في النفوس والأذهان أن اتباع هذْي الحبيب المصطفى ﷺ هو الحل الوحيد للمّ الشعث ورأب الصدع، وأن الإكثار من ذكر الله ولزوم مراقبته، وتغذية القلب بمحبته، والمثابرة على ذلك يذيب الأنانيات ويقضي على حظوظ النفس وشهواتها ويجعل الأمة كلها لحمة واحدة، لأنها لا تلتقي إلا على رضا الله ومحبته.

لقد تعلمنا في هذين اليومين أنه لا يمكن الانجذاب نحو النبي لكي نروم اكتمال اتباعنا له إلا إذا أحببناه، وإذا أحببناه احترقنا بأنوار العشق، وإذا احترقنا بأنوار العشق انجذبنا، وإذا انجذبنا اقتربنا، وإذا اقتربنا تأدبنا، وإذا تأدبنا ازددنا اقترابا، فازددنا عشقا، فازددنا احتراقا، فازددنا حزما وجدية لا ينفرط عقد ذلك، إلا بلقاء الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩). بهذه الكلمات المباركات أسدل المؤتمر ستاره، ولَمْلَمَ العلماء والباحثون أوراقهم التي نشروها لينفحوا المكان والزمان، بعطر سيد الأكوان والأزمان، واستعدت القاعة لتطفئ أنوارها مؤذنة بنهاية محتومة لكل بداية، وغادر الجميع المكان تتجلى في قلوبهم أنوار محبته، وتشرق في أرواحهم شمس عشقه، ولسان حالهم يقول:

فليت اليوم فيه كان دهرا**وليت العمر مد له فطالا. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر
كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 20222631551+
الهاتف الجوال : 20165523088+
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir - Türkiye
Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
Phone: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210 Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي:
شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن
عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca /
Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

ونحن نبني حضارتنا

محمد فتح الله كولن

- الانبعاث الحضاري في الأمة ما هي قواعده وأصوله؟
- لبنات هذا البناء من أين وكيف؟
- عوامل النهوض الحضاري كيف نشخصها؟ وكيف السبيل إلى استخدامها؟
- العقل الحضاري كيف نبنيه؟
- السلوك المتمدن كيف نشكله في النفوس؟

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر
تليفون وفاكس : 20222631551+ الهاتف الجوال : 20165523088+
www.daralnile.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار

وردة في صحراء الثلج

وردة ضاحكة مستبشرة،
ساجدة لربها شاكرة...
أجواؤها ساحرة،
مفعمة الزرقة، شفَّافة الرِّقَّة،
وحولها، خريف يئنّ،
وصحراء من وَجدها تُجَنُّ،
وإذا ما الرحمة من الأعالي نزلتْ، وشآبيبَ أنداءٍ تحولت،
ذابت صحراء الثلج...
والإلحاد الكَفَّار، لموته يُفضي وإليه يجري،
فإذا الدنيا ربيعٌ يضحك،
وعطرٌ يضوع، وشذًى يفوح،
والكُلُّ في عيد..!

ISSN 1306-1879
www.hiramagazine.com
Ocak-Şubat 2011 Sayı:22 Fiyatı: 5 TL.